

الفصل الأول

فى مدينة كوكتاون بانجلترا ، وفى حجرة الدرس وهى حجرة مربعة الشكل قبيحة المنظر ، جلس عشرون من التلاميذ والتلميذات ـ صامتين ـ يستمعون للسيد » جرادجريند » **وهو يحدث معلمهم قائلا :**

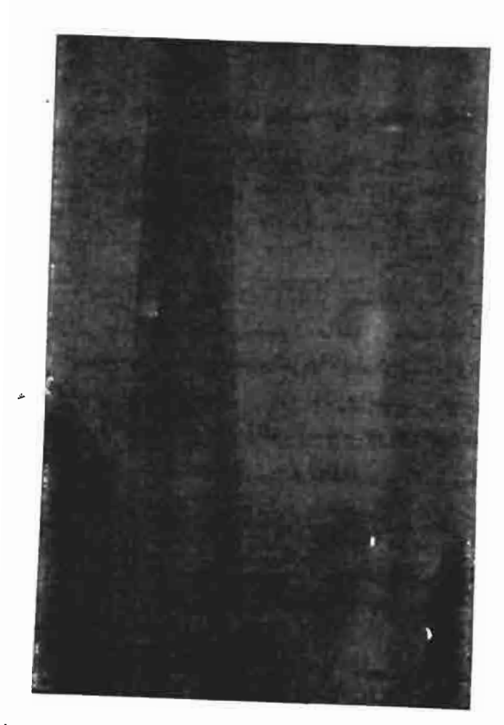
ـ أريد حقائق مادية ، علم هؤلاء الأولاد والبنات الحقائق العلمية فقط يا سيدى ، لقد ربيت أولادى على الحقائق وأريدك أن تربى هؤلاء الأطفال على الحقائق ، فلا شىء أنفع لهم من الحقائق ··

هكذا كان يتحدث السيد « جرادجريند » ، رجل

الأعمال المعروف ومالك هذه المدرسة الصغيرة بينما وقف الى جانبه شاب أنيق مهذب ، لم يكن ـ حتى هذه اللحظة ـ قد شارك فى الحديث .

وكان السيد جرادجريند قد بنى تلك المدرسة وجعلها أشبه ما تكون بتكوينه الجسمانى .. مربعة الشكل !! فقد كان هو مربع الجسم له رأس أصلع مربع الشكل وأصابع غليظة مربعة الشكل أيضا أما عيناه فكانتا أشبه ببئرين مربعى الشكل مظلمين حفرا فى مقدمة رأسه الأصلع ، الذى فقد معظم شعره وبدا هذا الرأس الأصفر وكأنه على وشك الانفجار ، ربما من شدة ازدحامه بالحقائق !!

والسيد « توماس جراد جريند » ـ وهذا اسمه كاملا ـ لا يعترف بشىء فى الحياة لا يندرج تحت قائمة الحقائق المادية ، فأى شىء لا يخضع للاحصاء العددى أو للقياس الحجمى أو الكمى ليس له وجود فى رأى السيد « جراد جريند » ، وبالتالى .. هو يرفض أن يفسح له مكانا فى رأسه .



مدينة كوكتاون

وبينما ظل الأولاد والبنات على صمتهم، **استأنف السيد « جراد جريند » حديثه :**

ـ اننا لا نحتاج فى حياتنا هذه الا الى الحقائق .. البنت رقم ٢٠ قفى ؟ اننى لا أعرف هذه البنت .. من تكون ؟

كانت البنت رقم (٢٠) بنتا جميلة لها عينان سوداوان جميلتان وشعر أسود فاحم ، وعندما أشار اليها السيد جراد جريند وأمرها بالوقوف ، وقفت وقد اكتسى وجهها بحمرة شديدة وانحنت تحية واحتراما **وأجابت على سؤال السيد جراد جريند قائلة :**

ـ اسمى « سيسى جوب » يا سيدى !

فقال :

ـ أن « سيسى » هذا ليس اسما . لابد أن أسمك هو سيسيليا .

فقالت البنت وهى لا تزال على انحناءتها محمرة الوجه :

ـ ان أبى ينادينى « سيسى » . يا سيدى .

فقال لها السيد « جراد جريند » فى حزم قاطع :

ـ اذن فهو مخطىء . قولى له أنه يجب عليه ألا يناديك بهذا الاسم ثانية . فاسمك هو « سيسيليا جوب » . قولى لى يا سيسيليا .. ما هى صنعة أبيك ؟

ـ انه يعمل مدربا للخيول فى السيرك يا سيدى .

ـ فى السيرك ؟! آه يا عزيزتى ! اننا لا نحب أن نسمع شيئا عن هذا هنا . بالتأكيد هو يرعى الخيل عندما تمرض ، أليس كذلك ؟ .

ـ بلى يا سيدى انه يفعل هذا أيضا .

ـ اذن فهو طبيب ، طبيب بيطرى والآن يا « سيسيليا جوب » ، قولى لى ما هو الحصان ؟

فازداد احمرار وجه سيسى ولم تحر جوابا ، **فقال السيد « جرادجريند » غاضبا :**

– ان البنت رقم (٢٠) بنت غبية ، انها لا تعرف مجموعة الحقائق المتعلقة بحيوان عادى ٠٠ سوف أسأل ولدا ٠

وتحرك الأصبع المربع فى الهواء وتوقف مشيرا الى « بيتزر » ، وهو طفل أشقر الشعر أبيض الوجه ٠٠ فاتح لون العينين ، باختصار كل ما فيه كان شاحب اللون أو أبيض ، **أشار اليه السيد** « **جراد جريند** » **وسأله :**

– والآن يا بيتزر ٠٠ ما هو الحصان ؟

فأجاب بيتزر بثبات :

– حيوان ، يا سيدى ٠ من ذوات الأربع ٠٠ يأكل الحشائش أو الحبوب ، عدد أسنانه أربعون سنة ٠٠ يسقط شعره فى الربيع ، ويحتاج الى حدوة من الحديد فى البلاد الرطبة ويعرف سنه من علامات فى فمه و٠٠

فقاطعه السيد جراد جريند موجها الحديث الى سيسى :

– البنت رقم (٢٠) ٠٠ هل سمعت هذا ؟ **الآن قد عرفت الحقائق التى يجب أن تعرفيها عن الحصان ٠**

لم يكن من الممكن أن يحمر وجه « سيسى » أكثر من هذا ، فانحنت ثانية وجلست فى أدب ٠ وهنا تقدم الشاب الأنيق المهذب للأمام ٠٠ كان ضابطا فى الحكومة وكان لا يتعامل هو الآخر الا مع الحقائق ٠٠ **تقدم وقال :**

– أبنائى وبناتى ، استمعنا الآن للحقائق المتعلقة بالحصان ، والآن – اصغوا الى ٠٠ اذا افترضنا أنكم تريدون تجميل هذه الحجرة فهل تراكم تضعون صورا للخيل على جدرانها ؟

فأجاب نصف التلاميذ فى صوت واحد قائلين :

– نعم يا سيدى ٠

فحرك الضابط رأسه علامة عدم الموافقة **وفى الحال صاح النصف الآخر من التلاميذ :**

– لا يا سيدى ٠

فقال السيد المهذب :

– لن تفعلوا ! بالطبع لن تفعلوا ٠٠ فهل رأيتم أبدا خيولا تجرى على الجدران؟ هل رأيتم هذا ؟!

أجابت بضعة أصوات خافتة ب « نعم ، يا سيدى » ولكنها غرقت وسط طوفان من الصياح ب « لا ياسيدى ».

فقال الضابط :

– بالطبع لا ، فأنتم لم تروا مثل هذا من قبل ٠ فالخيول التى تجرى على الجدران ليست أمرا واقعيا ٠

فقال السيد جراد جريند مؤمنا باعجاب :

– هذا صحيح ، صحيح جدا ٠

واستطرد السيد المهذب قائلا :

– والآن أنتم جميعا ترون أننا يجب ألا نحتفظ بالأشياء غير الواقعية ٠ والآن ٠٠ اذا أردتم شراء سجادة ، فأى نوع من السجاد تشترون ؟ هل تشترون سجادة رسمت عليها صور أزهار ؟

أجاب الجميع – هذه المرة – « بلا يا سيدى » ٠

فقد تعلم التلاميذ أن هذه هى الاجابة الصحيحة على كل أسئلة هذا السيد ٠ ولكن صوتا واحدا – للحق كان معه صوتين آخرين خافتين – أجاب ب « نعم يا سيدى » ٠٠ كان هذا هو صوت « سيسى » ، **وبسرعة قال السيد المهذب :**

– البنت رقم (٢٠) ، هل تشترين سجادة رسمت عليها صورة أزهار ؟!

فاحمر وجه سيسى **وانحنت بشدة وهى تجيب بصوت خافت :**

– نعم يا سيدى ، فأنا أحب الأزهار ٠

– ولكن الناس يسيرون فوق السجاجيد ، فهل تحبين أن تدهس الأحذية الغليظة أزهارك ؟ ٠

– ان الأحذية لن تؤذى الأزهار المرسومة ياسيدى، فقط أنا أحب أن أتخيل السجادة بأزهارها وكأنها حديقة جميلة ٠

فصاح السيد المهذب :

– « أتخيل » ! ماذا تعنين بـ .. « أتخيل » ؟ يجب ألا تتخيلى أبدا ؟

وهنا تدخل السيد جراد جريند مقاطعا بشـــدة وغضب **وقال :**

– « سيسيليا جوب » ، أننى أمنعك أن تتخيلى أى شىء .

وصاح السيد المهذب قائلا :

– الواقع . ثم الواقع ، ثم الواقع ..

فرد السيد جراد جريند :

– نعم ، الواقع .. ثم الواقع .. ثم الواقع

ثم استطرد السيد المهذب قائلا :

– فى هذه المدرسة ، يجب أن تنسوا كلمة «الخيال» عندما ترسمون .. لا ترسموا خيولآ أو أزهارآ فعلى الورق لا توجد هذه الأشياء ! وعندما تقرأون يجب أن

تقرأوا عن حقائق الواقع،وعندما تكتبون يجب أن تكتبوا الحقائق .. الحقائق ولا شىء غير الحقائق ، هل تفهمونها هل تفهمين يا ابنتى رقم (٢٠) ؟ ! .

فأجابت البنت وقالت :

– نعم ياسيدى .

ثم جلست ، كانت صغيرة وجميلة . ولم تكن تعتقد أن عالم الحقائــق المجرد من الخيــال يمكن أن يكون عالمآ سعيدآ .

الفصل الثــانى

كان السيد « جراد جريند » يشعر بسعادة بالغة وهو يسير عائدا الى بيته فى هذا المساء فتلاميذ مدرسته سيصبحون عمــا قريب فى نفس ذكاء أطفـــاله هو شخصيا . ومن المؤكد أنه لا يوجد مربى يستطيع أن يتفوق عليه فى تربية أطفاله الخمسة .

بالطبع ، كان بيت السيد « جراد جريند » والذى يسميه « ستون لودج » يحتـوى على حجرة للدرس .. فى الحقيقة كانت هذه الحجرة هى السجن الخاص بأطفاله، وهى أول مكان تخطو اليه أقدامهم بمجرد أن تتعلم كيف

تخطو ، ولو فتشنا فى ذاكرة أطفال جراد جريند عن أول ذكرى ، لوجدناها .. سبورة سوداء !! أن أطفال عائلة جراد جريند لا يعرفون شيئا عن قصة « الدببة الثلاث » ولكنهم – بالطبع – يستطيعون ترديد « الدب حيوان من ذوات الأربع له جسم ضخم وغطاء سميك من الفرو » ، وهم أيضا لم يسمعوا عن .. « الرجل الذى يحيا فوق القمر » .. يعيش فوق القمر ! .. أوه .. لا ! فالقمر – فى علمهم – صحراء جافة خالية مملوءة بالصـــخور والرمال . أما الشمس .. فهى ابدا لم تبتسم لأحد من أطفال عائلة جراد جريند ! وكيف لها أن تفعل ؟! .. انها مجرد كمية من الغازات الساخنة .

أما ستون لودج نفسه فكان منزلا مربع الشـكل كبيرا ، يبعد ميلا خارج مدينة كوكتاون فى شمال غرب انجلترا ، ولم يكن به أى شىء خيالى .. فله ست نوافذ على كل جانب من جانبى الباب الأمامى ، وله اثنتا عشرة نافذة فى الخلف .. وكان منسقا ومنظما .. فهكذا يجب أن تكون بيوت السادة الوجهاء ، وكأى شىء فى حيـاة السيد جراد جريند ، كان ستون لودج واقعا لا خيالا .

كانت أعمال السيد جراد جريند قد جعلت منه رجلا غنيا ٠٠ فقد كان يشترى الأوانى المعدنية من المصانع ويبيعها للمتاجر ، وكان العائد الضخم الذى يربحه من تجارته هو الحقيقة الوحيدة التى لم تفشل فى اسعاده أبدا ٠٠ الآن أصبح لدى السيد جراد جريند عمال وموظفون يقومون بمعظم العمل ، وبالتالى توفر له المزيد من الوقت لأشياء أخرى هامة ٠ والحكومة القوية الناجحة هى أحد هذه الأشياء الهامة التى يهتم بها السيد جراد جريند ، فهو يود أن يصبح نائبا فى البرلمان عن مدينة كوكتاون ٠٠ ولماذا لا يكون ؟! ٠٠ لقد عاش حياته فى هذه المدينة ، كما أنه قد بنى وأنفق على المدرسة الجديدة ، وبخبرته كرجل أعمال يمكنه أن يكون نائبا ممتازا ، وهناك أيضا لا ننسى ميزة مؤكدة وهى أن البرلمان فى حاجة لرجال واقعيين يؤمنون بالحقائق فقط ٠

ان توماس جراد جريند رجل أعمال ناجح وصعب المراس (هكذا يقول سكان كوكتاون) وليست هناك متعة أو لهو فى حياة السيد جراد جريند ٠٠ ولأن

السيد جراد جريند رجل يحب الحقائق فقط ، فقد أزعجه جدا أن يسمع صوت موسيقى بينما هو يسير فى طريقه الى بيته فى ذاك المساء،فالرجال ذوو الرؤوس الصلبة يستمتعون بحياتهم أكثر بدون موسيقى ، ــ هكذا كان يعتقد جراد جريند ــ ولهذا ضايقه صوت الموسيقى ، كان الصوت يأتى من خيمة سيرك سليرى التى بنيت عند أطراف المدينة ، وعند باب السيرك ٠٠ كان يقف سليرى نفسه ، رجل بدين **يحمل صندوق نقوده ويصيح :**

ــ أسرعوا ٠٠ هلموا ٠٠ الخيل مستعدة ــ هلموا ٠٠ شاهدوا الآنسة جوزفين سليرى الشهيرة التى تركب جوادها الأبيض واقفة على ظهره ٠٠ أسرعوا ٠٠ هلموا ٠٠ شاهدوا السيد جوب وهو يمتطى صهوة جواده ومعه كلبه المدرب ميرى ليجز ٠٠ شاهدوا أيضا السيد شيلدرز ٠٠ !

لم يتوقف السيد « جراد جريند » بالطبع فليس عنده وقت يضيعه فى مثل هذه الأشياء التافهة ٠

انعطف الطريق الى اليسار وأصبح يمر خلف الخيمة الكبيرة ، وهناك رأى السيد « جراد جريند » ثلاثة ، أو أربعة من الأطفال خلف الخيمة ٠٠ كانوا ٠٠ نعم ! ٠٠ كانوا يسترقون النظر من خلال ثقب صغير فى الخيمة ليشاهدوا ما يحدث داخل السيرك !

فقال « جراد جريند » فى نفسه : « يالهؤلاء الأشقياء ! انهم لم يذهبوا الى المدرسة ظهر اليوم ، سوف أقترب منهم ، ربما عرفتهم ٠٠ » ٠

وبالفعل عرف منهم اثنين على الفور ٠٠ ابنته « لويزا » وأخوها « توماس الصغير » ٠٠ **فصاح جراد جريند مناديا عليهما فى حدة :**

ــ لويزا ! توماس !

فاستدار بسرعة وجهان صغيران تكسوهما حمرة الخجل ٠٠ **نظرت** لويزا لأبيها فى تحد صبيانى بينما لم يرفع « توماس » رأسه من الأرض لشدة خوفه ، **وصرخ السيد « جراد جريند » :**

ــ اننى ٠ لم أفاجأ فى حياتى الى هذه الدرجة من قبل ٠٠ ماذا تفعلان هنا ؟! ٠

فأجابت لويزا بنبرة فيها تحد :

ــ كنا نود أن نرى كيف يكون السيرك ؟

ــ كيف يكون ؟! ٠٠ سيرك ؟!

ــ نعم يا أبى !

خيم الحزن والأسف على وجهى الطفلين، خاصة لويزا ، وان كان هناك بريق ينبعث من عينيها بريق غير مستقر ، كأن بهما نارا جائعة ٠٠ عجيبة ٠٠ تريد أن تبقى على نفسها مشتعلة بغير وقود يحترق !

كانت لويزا فتاة فى الخامسة عشر أو السادسة عشر من عمرها ٠٠ امرأة تقريبا ٠٠ وكانت جميلة ، وكان أبوها يعرف ذلك وكان يقول فى نفسه : أنها ربما عانت كثيرا بسبب جمالها ، لو أن شخصا غيره تولى تربيتها ٠

اخيرا قال السيد جراد جريند :

ـ توماس .. اننى أوجه اليك اللوم على هذه .. هذه المغامرة ! ان فتى فى مثل تربيتك وتعليمك كان الأحرى به ألا يحضر أخته لمثل هذا المكان .

فردت لويزا بسرعة :

ـ أنا التى أحضرته يا أبى .. فقد طلبت منه أن يأتى معى .

ـ انى جد حزين لسماعى هذا . ولكن هذا ليس عذرا يا توماس ، وفى نفس الوقت فان موقفك أصبح أشد سوءا يا لويزا .

فنظرت لويزا فى وجه أبيها ثانية . هذه المرة بعينين غير دامعتين . **بينما استأنف أبوها الكلام قائلا :**

ـ أنت يا توماس ! .. وأنت ! ان كل المعارف مفتوحة أمامكما وتربيتكما تربية كاملة ، وكل حقائق الكون فى متناول أيديكما .. ثم تأتيان الى هنا ! .. أنت وتوماس ! .. الى السيرك !! أنا لا أستطيع أن أفهم هذا .. لا أستطيع .

ـ كنت متعبة ، منذ وقت طويل وأنا أشعر بالتعب .

ـ متعبة ؟ من أى شىء ؟ .

ـ لا أعرف .. ربما من كل شىء .

ـ انك تتكلمين كطفل صغير .. لا أريد أن أسمع منك كلمة أخرى .

وساروا ـ ثلاثتهم ـ حوالى نصف الميل فى صمت ، **ثم تساءل السيد جراد جريند قائلا :**

ـ ترى ماذا يقول أفضل أصدقائك عنك عندما يعرفون ؟ ألم تفكرى فى هذا ؟ ماذا يقول السيد « باوندر باى » ؟

ما أن سمعت لويزا أباها ينطق بهذا الاسم حتى نظرت اليه بسرعة نظرة ذات مغزى ، ثم أشاحت بوجهها بعيدا . ولم يلحظ أبوها أى شىء .. **بل ردد سؤاله :**

ـ ماذا يقول السيد « باوندرباى » هه ؟ ماذا يقول ؟ .

وأخذ يردد نفس السؤال طوال الطريق حتى وصلوا الى ستون لودج ، ليجدوا « باوندر باى » فى انتظارهم .

كان السيد » باوندرباى » يجلس بجوار المدفأة عندما دخل السيد « جراد جريند » وبصحبته ابنته « لويزا » وابنه « توماس » ، وجلس جراد جريند على **مقعد بجوار المدفأة أيضا . ونظر باوندرباى الى لويزا** نظرة كأنه يقول بها (هآنذا رجلك .. باوندرباى) .

كان السيد « باوندرباى » رجلا ضخم الجسم ، فظا .. عالى الصوت و .. غنيا جدا . فقد كان يملك أكبر مصنع للنسيج والملابس الجاهزة فى « كوكتاون » وهو أيضا صاحب المصرف الوحيد وهو ـ على حد تعبيره ـ رجل عصامى بنى نفسه بنفسه . **وقد اعتاد على الصياح متباهيا ـ على مرأى ومسمع من الناس ـ بقوله :**

ـ لم يكن عندى حذاء أرتديه .. كنت حافيا يا سيدى . ولم يحمل جيبى مليما واحدا .. لأنه فى الحقيقة لم يكن لى جيب . يا سيدى . رمتنى أمى فى الشارع وأنا ابن الرابعة من عمرى .. أتسول فى الشارع طيلة النهار ، وحين يأتى الليل .. أنام على أرصفته . لم أذهب فى حياتى الى مدرسة ، ولكننى .. علمت نفسى بنفسى ، كل هذا ولكن ـ أنظر الى الآن يا سيدى .. اننى رجل عصامى .

كان السيد « جوزيه باندرباى » ـ وهذا هو اسمه كاملا ـ أحمر الوجه ، صلب الرأس ، فى الثامنة والأربعين من عمره وان كان يبدو أكبر سنا من هذا .. على الأقل بعشر سنوات ، وله صوت جهير كأنه صوت الرعد . ولأن رأسه أصلع خال تماما الا من شعيرات قليلة ، فقد اعتاد الناس فى كوكتاون أن يسخروا منه ـ فيما بينهم ـ بقولهم أن (صوته الرعدى قد أطاح بشعره منذ زمن بعيد) .

نظر « باوندرباى » الى « لويزا » ، ولكنه عندما تكلم .. **تكلم الى « توماس » قائلا :**

– انك لا تبدو سعيدا الليلة يا « توماس » .

فقالت « لويزا » :

– كنا نحاول مشاهدة السيرك ، ولكن أبى أمسك بنا .

فصرخ أبوها :

– ان مشاهدة السيرك عمل مشين مثل .. مثل قراءة الشعر تماما ! ألا توافقيننى على هذا يا مسز « جراد جريند » ؟

فقالت زوجته :

– بلى ؛ بالتأكيد . اننى لا أستطيع أن أفهمكما يا لويزا .. أنت وتوماس . فلماذا تذهبان لمشاهدة السيرك ؟! أليس لديكما ما يكفى من العمل فى حجرة الدرس ؟ : كما تعرفان أن رأسى المسكين مصاب بالصداع دائما فلا يمكنه تذكر نصف ما تعرفان من الحقائق والعلوم .

فقالت لويزا بتحد :

– ان هذا هو السبب !

فقالت لها أمها :

– لا يا لويزا . ليس هذا هو السبب ، أنت تعلمين هذا ! .. والآن اذهبا الى حجرة الدرس وذاكرا شيئا ، لكم كنت أتمنى أن أحظى بمثل فرصتكما فى التعليم .

لم تكن السيدة « جراد جريند » متعلمة حقا ، فهى لا تعرف الا القليل من حقائق الكون . وقد تزوجها السيد « جراد جريند » لأن – على حد تعبيره – الرأس الفارغ ، أفضل كثيرا من رأس تملؤه الخيالات والأوهام .

أخيرا ، أصبح السيدان الوجيهان وحدهما .

فقال السيد جراد جريند مخاطبا صديقه :

– باوندرباى ، اننى قلق للغاية – فأولادى تلقوا أحسن تربية وأحسن تعليم .. أقصد أنهم تعلموا كل الحقائق العلمية تقريبا ، ولكن .. الآن أشعر أن شيئا آخر بدأ يزحف على رأسيهما ، وانى لأتساءل ما الذى يدفعهما لزيارة هذا السيرك ؟ ما رأيك ؟

فأجاب باوندرباى :

– ربما تكون الأحلام

– أوه ، آمل ألا يكون هذا ! ولكن .. بالفعل .. ربما تكون على حق .

– ان أحلام اليقظة شىء سىء بالنسبة لأى انسان ، ولكنها تصبح شيئا مرعبا اذا كان الأمر يتعلق بفتاة مثل لويزا . انى أتساءل عما اذا كان أحد ما قد تحدث معها فى هذه الأمور .. ألا يوجد طفل من السيرك ملتحق بمدرستك ؟ .

فامتقع وجه السيد « جراد جريند » وأجاب :

– نعم ، « سيسيليا جوب » لقد رأيتها اليوم فقط ..

فأخذ السيد باوندر **باى شهيقا عميقا ثم قال :**

– حسن ، أطردها يا جراد جريند .. أطردها فى الحال .

– الحق ما تقول ، فلنذهب سويا لأبيها .. الآن ، فقط انتظرنى ريثما أحضر العنوان من مكتبى .

وفى أثناء انتظاره ، ذهب باوندرباى الى حجرة الدرس ، حيث كانت « لويزا » و « توماس الابن » والصغار الثلاثة الآخرون ، أطفال عائلة جراد جريند ، وكانت الصغيرة « جان » قد رقدت فوق صفحة مملوءة بالصور .

قال السيد باوبندرباى :

– كل شىء على مايرام الآن ، فقط لا تذهبا للسيرك ثانية وسيسامحكما أبوكما هذه المرة والآن يا لويزا .. ألا أستحق قبلة على هذا ؟ .. أليس كذلك ؟

فقدمت له لويزا خدها ولكنها لم تنظر اليه بعينيها **وقالت :**

– يمكنك أن تأخذ واحدة يا سيد باوندباى !

فقبلها باوندرباى وهو يقول لها :

– أنت دائما سيدتى الصغيرة ، الى اللقاء .

وبمجرد أن خرج .. أخذت لويزا تمسح خدها

لتمحو أثر القبلة ، وأخذت تحـــكه بعنف حتى أصبح محمرا جدا ، **فداعبها أخوها توماس قائلا :**

– سوف تحفرين حفرة فى خدك يا لو .

– لو أنك قطعت هذه البقعة التى قبلها بسكينك يا توماس ، لما وجدتنى أتألم أو أبكى .

الفصل الثالث

أسرع كل من السيد باوندرباى والسيد جرادجريند بالخروج فى اتجاه كوكتاون .. كانا فى طريقهما الى شارع (بود) حيث يقيم السيد جوبه والد سيسيليا .

ان أقبح حقائق الواقع والمتعلقة بكوكتاون .. هو كوكتاون نفسها ، فاذا كنت تتصور أن بهذه المدينة أى مظهر من مظاهر الجمال ، فقد جانبك الصواب بالتأكيد .. مبانيها بنيت بالقرميد الأحمر .. ولكن هذا كان منذ زمن طويل فقد استحال اللـــون الأحمر الى لون أسود داكن قبيح بفعل الغبار ودخان المصانع . فمدينة

كوكتاون مدينة صناعية .. مدينة آلات ضخمة ومداخن مرتفعة وسحب كثيفة من الدخان الأسود تملأ الجو .. هكذا هى كوكتاون .. وربما هكذا ستكون .. للأبد . وفى كوكتاون توجد ترعة ضيقة مياهها سوداء اللون ، ونهر صغير .. أحمر .. وهذا اللون الأحمر هو بفعل النفايات وبقايا الأصباغ التى تلقى بها مصانع النسيج فى هذا النهر .

وفى مدينة كوكتاون عدة شوارع واسعة .. كلها متشابهة تماما ، وفيها أيضا مجموعة من الشـــوارع الضيقة المزدحمة بالمنازل وكلها – أيضا – متشابهة تماما . حتى سكان هذه المنـــازل .. كلهم متشابهون تماما ، فكلهم يبدأون العمل فى السابعة صباحا تماما ، وفى المساء يعود الجميع الى بيوتهم فى السابعة مساء تماما . وبالنسبة لهؤلاء الناس فان اليوم يشبه الأمس .. يشبه الغد ، وهذا العام كالعـام المـاضى – كالعام القادم .

وكل هذه الحقائق .. لا تدهش أحدا ، فالحيـــاة فى كوكتاون تعنى العمل ، العمل والعمل وحده يعنى



منظر للبحيرة

الحياة واستمرارها ٠٠ ربما ليوم آخر أو ٠٠ لعـــام آخر ٠

ونعود لوصف أبنية هذه المدينة ، فكوكتاون بها ثمانى عشرة كنيسة مبنية بالقرميـــد الأحمر وكلهـــا متشابهة ، والمستشفى ـ المبنى بالقرميد الأحمر ـ يشبه السجن ـ المبنى أيضا بالقرميد الأحمر ـ وأهم أوجه الشبه هو أنه داخل المبانى ٠٠ وداخل عقول سكانها لا يوجد مكان سوى لحقائق الواقع ٠٠ والواقع فقط ٠

وبرغم أن كوكتاون كانت مدينة واقعية ، الاأنها كانت تعانى من بعض المشاكل ، فالعمـــال وأسرهم لا يذهبون مطلقا للكنيســـة ولا فى أيام الآحاد ، وهم يفرطون فى الشراب ٠٠ بالطبع لا أقصد شرب الشـــاى أو القهوة ! ٠

ولهذا كان أعضاء البرلمان يطالبون دائما باصـــدار القوانين قائلين : « نحن نحتاج لقوانين صارمة ٠٠ سوف نجعل هؤلاء الناس يذهبون للكنيسة بقوة القانون ،

وبقوة القانون ـ أيضا ـ يجب عليهم ألا يفرطوا فى شرب الخمر » ٠

ونستطيع القول ٠٠ أن سكان هذه المدينة كانوا يشبهون « لويزا » أو « توماس الابن » بوجه أو بآخر ٠ فشىء هام قد ضاع من حياتهم .. بالتأكيد ليس الواقع ، فهم يعانون تخمة فى هذا الشأن ، فهل ما ينقصـــهم هو ٠٠ الخيال ؟ ٠٠ ربما كان هذا الشىء المسمى بأحلام اليقظة أو ٠٠ ربما كان المتعة والسعادة الموجـــودة فى (سيرك سليرى) ٠

مر السيد بارندرباى والســـيد جراد جريند بالسيرك أثناء سيرهما ، ولكنهما لم يلتفتا اليـــه ٠٠ وأخيرا ٠٠ وصلا لنهاية شـــارع (بود) حيث يعيش السيد « جوب » وابنته ٠٠ « سيسيليا » ٠

فجأة ظهرت « ســيسيليا جــوب » وهى تجرى بالقرب من ناصية الشارع، **فعرفها السيد «جراد جريند» على الفور وناداها :**

ـ أهلا ٠٠ انتظرى ٠٠ نحن نريدك ! ٠

فاستدارت البنت رقم (٢٠) وقفلت راجعة **وقالت للسيد « جراد جريند » :**

ـ نعم ، يا سيدى

ـ نحن نبحث عن أبيك ، السيد « جوب » ، فهلا صحبتينا ـ أنا وهذا السيد المهذب ـ الى حيث يسكن أبوك ، فاننا نود التحدث اليه ٠

ـ أفعل يا سيدى ، وشكرا لك ٠ سيدى ٠٠ اذا سمعت صوت كلب فلا تنزعج فهـــو ليس الا (ميرى ليجز) كلب أبى المدرب وهو أبدا لا يؤذى أحدا ٠

ولكن ٠٠ ميرى ليجز لم يكن بالبيت ، ولا السيد جوب أيضا ٠ **فقالت سيسى :**

ـ أرجوك ٠٠ استرح لحظة يا سيدى ، ســـوف أذهب بسرعة وأحضر أبى ٠

وبعد أن أحضرت مقعدين للسيدين ، جرت مسرعة لتستدعى أباها ٠

بعد دقيقة من هذا ، دخل شاب الى الحجرة ، لم

يكن فارع الطول ولكنه كان يبـــدو قويا جـــدا تبرز عضلات صدره وذراعيه من تحت سترته ، انه السيـــد « تشيلدرز » رجل ســـيرك سليرى القـــوى ٠ دخل « تشيلدرز » وقدم نفسه للسيدين ٠٠ **ثم سألهما :**

ـ هل تودان مقابلة السيد « جوب » ؟ ٠

فاجاب السيد « جراد جريند » قائلا :

ـ أجل ، وقد ذهبت ابنته لتستدعيه ، ولكننا فى الحقيقة ليس لدينا ما يكفى من الوقت لانتظاره ، فهل تتكرم وتبلغه رسالة منا ؟

وعقب السيد « باوندرباى » قائلا :

ـ نحن قوم نقدر قيمة الوقت ، بينما لا يعرف مثلك قيمته أيها الشاب ٠

فرد عليه « تشيلدرز » بضيق :

ـ اذن لا تضيع وقتنا يا سيد ٠٠

ثم استدار للسيد « جراد جريند » **وخاطبه فى لهجة ودية قائلا :**

– ٠٠ ان والد الفتاة قد ذهب يا سيدى ٠

– ذهب ؟! الى أين ذهب ؟

– لقد ترك السيرك يا سيدى ، ففى خلال الأسبوع الماضى تضاءل نجاحه ودرجة قبول المشاهدين له ٠٠ فرحل ٠

فقال السيد « باوندرباى » :

– يبدو أننا بين صنف غريب من الناس يا « جراد جريند » ، لم يعد « جوب » محبوبا من الجمهور لهذا هرب !! والآن ، ان رجلا مثلى أنا ارتفع بنفسه ٠٠

قاطعه « تشيلدرز » قائلا بسخرية :

– اذن فانزل بها !

وتساءل السيد « جراد جريند » :

– ولكن ماذا عن الصبية الصغيرة ٠٠ ابنته ؟ انه بالطبع لم يتركها ، أو تراه فعل ؟!

– أخشى أن هذا صحيح يا سيدى ، رغم أنه وابنته

كانا شديدى التعلق ببعضهما البعض ٠٠ ولكن ٠٠ « جوب » أصبح عجوزا لا يقوى على العمل بالسيرك ، فأصبح يشعر بالخجل من نفسه ٠

وهنا قال « جراد جريند » مندهشا :

– أهكذا ؟! ترك ابنته وهرب ؟!

أصاب السيد جراد جريند الذهول لأنه برغم كونه رجلا صلب الرأس قوى الشكيمة كان أيضا رجلا يعرف معنى العائلة ٠٠ رجل عائلى ٠٠ ان صح التعبير !

اجابه تشيلدرز قائلا : ٠

– لقد كان خجله شديدا لدرجة لم يستطع معها أن يبقى بجوار ابنته ، فقد كان يحبها لدرجة أنه ٠٠٠

وهنا صاح باوندرباى مقاطعا بصوته الرعدى :

– لدرجة أنه تركها وهرب ٠ حسنا ٠٠ هذا شىء طيب ، سوف أخبرك بشىء أيها الشاب ، أننى أفهم مثل هذه الأشياء ٠٠ قد تندهش ٠٠ ولكن أمى أنا أيضا تركتنى صغيرا وهربت ٠

– لست مندهشا يا سيدى فقد فعلت والدتك الشىء الصواب ، ولكن أرجوك لا تصرخ بصوت عال هكذا فجدران هذا البيت المتهالك قد تسقط لو أنك تحدثت بمثل هذا الصوت ثانية ٠٠

ثم استدار تشيلدرز لجراد جريند **وأكمل حديثه قائلا :**

– ٠٠ كان جوب حزينا طوال اليوم وقد رحل قبل أن تعود « سيسى » من المدرسة وأخذ معه كلبه المدرب (ميرى ليجز) ٠ ان « سيسى » لن تصدق أنه رحل وتركها ٠

فسأله جراد جريند :

– ولم لا ؟

– لأنهما كما أخبرتك كانا شديدى التعلق ببعضهما البعض ، ولم يفترقا من قبل أبدا ٠٠ يالمسكينة سيسى اننا لم نعلمها أى شىء فلم يكن جوب يريد لها العمل فى السيرك كان يريدها أن تتعلم ولهذا فانها ٠٠٠

وقاطعه « جراد جريند » :

– لقد كان هذا رأيا صائبا

– آه ٠٠ أجل ، وقد سعد أبوها جدا حين التحقت بالمدرسة هنا ، وبالطبع نحن سنرحل عن كوكتاون الشهر القادم و ٠٠٠

وتمهل تشيلدرز قبل أن يكمل عبارته للنهاية ونظر فى عينى السيد « جراد جريند » **ثم استأنف حديثه :**

– اذا كنت قد جئت هنا لتساعدها يا سيدى ٠٠ اذن ٠٠ فان السماء قد وهبتها حظا سعيدا ٠

– حسن ، ان مدرستى مخصصة لأطفال مدينة كوكتاون وقد جئت هنا لأخبر السيد جوب ٠٠ أننا ٠٠ لا نريد أحدا من السيرك ٠٠ ولكن الآن ٠٠ اذا كان أبوها حقيقة قد تركها ورحل فربما أمكن ٠٠

وقطع السيد جراد جريند حديثه ونظر للسيد « باوندرباى » **ثم قال :**

— « باوندرباى » .. ألا تنصحنى بشىء ؟ .. أيها الشاب هل تمانع فى تركنا وحدنا للحظة ؟

فخرج شيلدرز ووقف أمام باب الغرفة حيث كان باستطاعته أن يسمع جزءا من الحوار الدائر بين السيدين :

— لا .. أقول لك .. لا .. يا « جراد جريند »!

— .. مثلا للويزا .. نهاية حياة شيطانية يا باوندرباى وانى لآمل أن ...

فى هذا الوقت كان بقية أفراد السيرك قد تحلقوا خارج باب الغرفة بجوار تشيلدرز . كان خليطا عجيبا من البشر.. مدربو خيول ومروضو حيوانات متوحشة، راقصون ومغنون .. نساء بدينات وأخريات نحيفات ، بعضهن جميلات وبعضهن قبيحات جدا ، ولكنهم جميعا يبدون — بطريقة ما — متماثلين ، فهناك سمة واحدة تميزهم جميعا .. البساطة والرقة .. رقة كرقة الأطفال ، ومن عيونهم كانت تطل نظرة ملؤها الأمانة ..

والرحمة أيضا ! كانوا صنفا من الناس يحب مساعدة الآخرين .. دون حساب للتكاليف ..

أخيرا وصل السيد « سليرى » ودخل الغرفة وقال مخاطبا السيد جراد جريند :

— هل سمعت عن رحيل السيد جوب وكلبه ، يا سيدى ؟ ألهذا أنت هنا ؟ .. بخصوص البنت ؟

— أجل ولسوف أقدم اقتراحا عندما تعود .

— أنا سعيد بهذا يا سيدى ، فأنا لا أريد أن أتخلص من البنت بأية طريقة .. لا .. فهناك ما يشبه القانون يحكمنا هنا فى السيرك .. اننا جميعا نساعد بعضنا البعض .

— آه ، أجل .. بالطبع .

استأنف « سليرى » حديثه قائلا :

— ان خطتك من أجل مستقبل « سيسى » قد تكون خيرا من خطتى . اذا بقيت معنا فسيكون عليها أن تعمل فى السيرك وسيكون عليها أن تبدأ من القاع وأبوها لم يكن يريد ..

فى هذه اللحظة عادت سيسى ودفعها الواقفون بالخارج الى داخل الغرفة ثم عادوا وتحلقوا حول الباب .

كانت سيسى تبكى ودموعها على خديها وهى تقول :

— آه يا أبى العزيز .. يا أبى الطيب ! ماذا عساك ستفعل بدونى ؟ كم ستكون قليل الحيلة ؟!

وهنا صرخ السيد باوندرباى قائلا :

— اسمعوا جميعا .. اننا نضيع الوقت هكذا ، ان أمى تركتنى وهربت ووالد هذه البنت فعل نفس الشىء .. والحقائق واضحة .. ان أبوها قد هرب ولن يعود ثانية ولن تراه مرة أخرى .. !

فقال أحد الواقفين خارج الغرفة :

— من يكون هذا ؟ هل يعتقد هذا الشخص أنه يعرف كل شى ؟ .

وصاحت النساء :

— ياللعار .. انه انسان متوحش فظ !

فاقترب « سليرى » من « باوندرباى » وقال له :

— ان عشيرتى .. هؤلاء ، ليسوا مؤذيين بما فيه الكفاية ، ولكن النافذة مفتوحة يا سيدى وأخشى ان أنت تفوهت بكلمة أخرى فلربما قذفوا بك من خلالها ولهذا .. خذ بنصيحتى والزم الصمت .

أخذ السيد « باوندرباى » بالنصيحة ولكن وجهه كان يتميز من الغيظ. بعد هذا قال السيد جراد جريند :

— حسن ، لقد ذهب الرجل ، قد يعود ثانية .. لكننا لا نعلم متى . أعتقد أننا جميعا نتفق على هذا الرأى .

فأجاب « سليرى » :

— أجل يا سيدى ، هذا صحيح

لقد كنت قررت أن أطرد سيسيليا جوب من مدرستى ، ولكن الواقع قد تغير الآن ، انها لا تنتمى للسيرك لأن أباها قد تركها ، وأنا على استعداد لأن أرعاها وأعلمها اذا وافقت .. فسيكون عليها أن تأتى

معى الآن ، كما سيكون عليها ألا تراسل أيا منكم بعد الآن سيداتى وسادتى ، وهذا كل ما عندى لأقوله ٠

فقال « سليرى » :

ـ ان هذا كرم وعطف منك يا سيدى ، والآن جاء دورى لأقدم عرضى ، ثم بعد هذا تتخذين قرارك يا سيسيليا ، اذا اخترت البقاء معنا فسوف تعيشين مع « ايما جوردون » وأنت تعرفين أى نوع من العمل سيكون عليك أن تتعلميه وتعرفين أى نوع من الحياة ستعيشين ٠٠ أعتقد أن هذا كل شىء ٠٠

فقال جراد جريند :

ـ هذا عدل جدا ٠٠ تذكرى يا آنسة « جوب » ان تعليم الفتاة شىء هام وأبوك كان يريد لك أن تتعلمى ٠٠ أليس كذلك ؟ يجب أن تفكرى فى هذا ٠٠ ثم تقررى وكونى واثقة أن قرارك سيكون بعد تفكير ٠

توقفت « سيسى » عن البكاء للحظة ، **ولكن فجأة اندفع الدمع من عينيها غزيرا وقالت :**

ـ اذا عاد أبى ، أريد أن أكون فى انتظاره ، والا كيف ٠٠ كيف سيجدنى بعد هذا ؟

فقال السيد « جراد جريند » بهدوء :

ـ لا تقلقى بهذا الخصوص يا « جوب » فأبوك سيستطيع بسهولة أن يهتدى لسيرك السيد سليرى ٠ والسيد سليرى سوف يخبره أنك فى بيت السيد « توماس جراد جريند » وأنا « توماس جراد جريند » من وجهاء كوكتاون كما أنى معروف جدا ٠ وبالطبع لن يمكننى أن أحتفظ بك لو أن أباك طلبك ٠

وطوال العشر دقائق التالية انهمرت دموع غزيرة على خدى سيسى ، ولكن قبلات كثيرة أيضا طبعت على خدها ، وساعدت فى كفكفة الدموع ٠ وأخيرا أصبحت سيسى مستعدة بسلتها الصغيرة التى تحوى ملابسها وتتابعت الأصوات ٠٠ « مع السلامة يا سيسيليا » ٠٠ « وداعا سيسى » ٠٠ « لا تنسينى يا سيسى » !

ثم كانت الكلمات الأخيرة ٠٠ **قالها السيد سليرى للسيد جراد جريند :**

ـ انها لن تنسانا يا سيدى ، فنحن نسعد الناس ٠٠ ننسيهم أحزانهم ٠٠ هذا هو عملنا فالناس يجب أن يجدوا من يسرى عنهم ، انهم لا يستطيعون أن يعملوا طول الوقت !

وسار السيد جراد جريند والسيد باوندرباى مبتعدين وبينهما سارت البنت رقم (٢٠) ٠٠

الفصل الرابع

لم يكن السيد « باوندرباى » متزوجا ، لهذا كان يستخدم مديرة لمنزله ٠٠ « مسز سبارسيت » تعمل كمديرة منازل فى الحقيقة ، ولكنها كانت سيدة تنتمى لعائلة كبيرة غنية ، الا أن السيد سبارسيت زوجها توفى شابا ثم ما لبث أن دب الخلاف بين مسز سبارسيت وعائلتها فغادرت منزل العائلة وكان لزاما عليها أن تجد عملا ٠

وكان السيد « باوندرباى » « ومسز سبارسيت» يشكلان ثنائيا غريبا وعجيبا من البشر فالسيدة كانت

فخورة بماضيها وأصلها العريق فى حين أن حاضرها يثير خجلها وحزنها ، أما السيد فدواعى افتخاره هى أنه كان فقيرا وضيعا فى يوم من الأيام ٠٠ وقد اعتاد أن يقول لأصدقائه :

– لقد ارتفعت من الحضيض الى هذا المستوى الذى أعيش فيه بمجهودى وحدى ، أما مسز « سبارسيت » فبرغم كل الفرص التى تمتعت بها فانها وصلت فى النهاية الى لا شيء ؟

عندما غادر السيد باوندرباى والسيد جراد جريند (بود ستريت) أخذا سيسى الى بيت السيد باوندر باى ونامت هناك تلك الليلة ، فقد كان على السيد جراد جريند أن يعد لها غرفة فى ستون لودج قبل أن تنتقل اليه ٠

وفى الصباح التالى ، **قال السيد « باوندرباى » للسيدة « سبارسيت » :**

– هذه البنت ستنتظر هنا يا « مدام » حتى يحضر « توم جراد جريند » ، اننى قلق لهذا الوهم الغريب فالفكرة ليست فى صالح « لويزا » على الاطلاق ٠

– آه يا سيدى ٠٠ انك أب آخر للآنسة لويزا

– مدام ٠٠ قولى أب آخر « لتوم الابن » فهذا محتمل فعن قريب سيعمل عندى فى المصرف وسيأتى ليعيش معنا ٠ قولى لى يا (مدام) هل تعرفين شيئا عن لاعبى السيرك هؤلاء ؟!

– لقد تعلمت القليل عن الحياة الوضيعة ٠٠ منك يا سيدى ؟

فضحك باوندرباى وقال :

– أجل ٠٠ أجل ، بالطبع ، فانت قد ولدت وعشت فى القصور ، أما أنا فولدت فى الشارع ٠

– هذا صحيح يا سيدى ، فانى ولدت فى القصور وفى رفاهية أما أنت ف ٠٠"

فى هذه اللحظة فتح الباب ودخل السيد « جراد جريند » ومعه لويزا ، فتصافح السيدان وطبع السيد « باوندرباى » قبلة على خد « لويزا » ٠ ثم استدعيت «سيسى» التى انحنت تحية لكل الموجودين

٠٠ ثم بدا السيد « جراد جريند » الحديث قائلا « لسيسى » :

– حسن يا آنسة « جوب » ، لقد قررنا لك مستقبلك ٠سوف تعيشين فى بيتى وتذهبين الى المدرسة كل يوم ٠ لعلك لا تعرفين أن السيدة زوجتى مريضة وعلى هذا فيمكنك الاعتناء بها فى الأيام التى لا تذهبين فيها الى المدرسة ٠ لقد أخبرت الآنسة « لويزا » – هذه هى الآنسة « لويزا » – عن حياتك السابقة فى السيرك ٠٠ هذه الحياة انتهت الآن ويجب عليك ألا تتحدثى عنها ثانية فالآن يجب عليك أن تبدأى فى تلقى العلم وقولى لى ٠٠ ألا تعرفين أى قدر من الحقائق الواقعية يا « جوب » ٠٠ ؟

فأجابت سيسى وهى تنحنى :

– لا يا سيدى ٠

– انى سوف أغير هذا الوضع بسرعة ٠

ثم اقترب من سيسى أكثر **وقال بصوت خافت :**

– هل تستطيعين القراءة يا جوب ؟

– أوه ! أجل يا سيدى ، فأبى لم يكن يحسن القراءة ٠٠ ولهذا فقد اعتدت أن أقرأ له ٠٠ لقد كانت أسعد أوقاتنا تلك التى كنا نقضيها معا فى القراءة ٠

– وماذا كنت تقرأين ؟

– قصصا يا سيدى ٠٠ قصصا رائعة ، عن الجنيات الطيبات والجنيات الشريرات ، وعن «روبنسون كروزو» و « جاليفر » و « الملك العارى » ٠٠ آه يا سيدى وكم كنا نسرح ونسبح فى الخيال !

– هيه ٠٠ هذا يكفى ٠ يجب ألا تسرحى ثانية يا جوب ٠٠ أبدا ٠ ان هذا لجد خطير يا باوندرباى ان الضرر قد وقع بالفعل ويجب أن أبدأ فى الحال فى اصلاحه !

فقال باوندرباى :

– لقد حذرتك يا جراد جريند ٠٠ لقد حذرتك بالأمس ٠ انك مقدم على فعل لم أكن لأقدم عليه ، ولكن هذه مشكلتك ٠٠ اذن استمر ٠ اذا كنت قد عقدت عزمك فتقدم ٠

بعد هـــذا بقليل أخذ السيد « جراد جريند » و « ابنته » و « سيسيليا جوب » الى « ســـتون لودج » وطوال الطريق لم تنطق لويزا بكلمة واحدة ٠٠ طيبة أو غير طيبة ، بينما لم يكف السيد جراد جريند عن ترديد قوله : لا تسرحى يا جوب ٠٠ لا تسرحى أبدا !!

« لا تسرح أبدا » ٠٠ هذه الجملة الصغيرة ربما كانت القانون الذى يحكم حياة السيد جراد جريند ، وهى أيضا سر تربيته ٠٠ فما دام الانسان يستطيع أن يجمع ويطرح وأن يضرب ويقسم ٠٠ اذن فهو يستطيع القيام بأى شىء آخر ٠٠ اذن فلا أحد يحتاج أن يسرح بخياله ٠٠ تلك كانت فلسفة السيد « جراد جريند » ولم تكن غريبة عليه ، أما الغريب حقا فهو أن ســكان (كوكتاون) كانوا يوافقون السيد جراد جريند على فلسفته هذه ٠ اذن فلماذا تمتلىء مكتبات المدينة بالكتب والقصص الخيالية ؟ ان هذا السؤال كان يؤرق السيد جراد جريند ويعكر عليه صـــفو حياته ان النـــاس يستطيعون القراءة ٠٠ وهم يقرأون بالفعل قصصـــا عن الجن ، وهم يستمتعون بمغامرات روبنسون كروزو

وجاليفر ويسرحون بخيـالهم معهم ، وينفعلون بهـــم فرحا وحزنا ٠

لكن بالطبع لا مكان لهذه الكتب فى مكتبة بيت السيد جرادجريند ، ولويزا وتوم الابن لا يعرفـــان شيئا عن قصص الجان أو عن مغامرات الأبطال ٠ وقد دار هذا الحوار بين الأخوين ذات مساء بعد انتهاء العمل فى أحد الأيام بغرفة الدرس ، **قال توم :**

ـ لقد تعبت من هـــذه الحياة يا لو ٠٠ اننى أكرهها ٠٠ أكره الكل ما عداك يا لو ٠

ـ انك لا تكره سيسى يا توم ٠٠ أليس كذلك

ـ لقد فرض علينا أن تناديها ب جوب ٠٠ وأنا أكره هذا ، وأعتقد أنها تكرهنى ٠

ـ لا انها لا تكرهك يا توم ٠٠ أنا واثقة من هذا

ـ بل أعتقد أنها تكرهنا جميعا ، اننا نجعلهـــا تمرض قبل الأوان ، لقد بدأ السقم يبدو عليها بالفعل

ـ ان دروسها تتعبها ٠٠

ـ أنا حمار يا لو ٠ اننى غبى كالحمار ، وأشعر أنى بالفعل حمار ، ولا ينقصنى سوى أن أرفس الناس!

فقالت لويزا ضاحكة :

ـ الا أنا ٠٠ آمل هذا يا توم ٠

ـ لا ٠٠ ما كنت لأوذيك يالو ، فاننى لاأستطيع الحياة فى هذا ٠٠ هذا السجن بدونك ٠٠

ـ كثيرا ما كنت أتساءل لماذا لا يمكننى أن أجعلك أسعد حالا ، اننى كبرت ولكنى لا أستطيع أن أفعل أى شىء يثير البهجة ، فأنا لا أجيد عزف الموسيقى ، ولا أحسن الغناء ولا أعرف أى قصص يمكن أن أحكيها لك ٠٠ اننى حتى لا أعرف أى شخص يمكنى أن أحدثك عنه ٠

ـ ولا أنا ، بل انى حمار أيضا ٠٠ أبى قرر لى أن أصبح حمارا ٠

ـ انها لمأساة كبيرة يا توم فكلانا لا يســـتطيع مساعدة الآخر ٠

ـ أنت شىء مختلف ، فأنت فتاة ٠٠ فتاة رائعة !

أنت المتعة الوحيدة التى لى ، بل ان بامكانك أن تجعلى هذا المكان براقا كما أن بامكانك قيـــادتى كيفمـــا تشائين ٠

ـ لا أعتقد أن ما تقوله صحيح يا توم ٠٠ ولكنك أخى الحبيب ٠

ثم عبرت الحجرة وقبلت أخاها ثم عادت الى مقعدها بجوار النافذة **فقال توم :**

ـ اننى أود أن أصـــنع كومة من كل الحقائق والمعارف ، كل حقائق ومعارف الكون وكل الرجال الذين اكتشفوها ٠٠ الكل فى كومة واحدة ثم أشعل النار فى هذه الكومة حتى تصبح رمادا ٠٠ على أى حال ٠٠ فعندمـــا أذهب للعيش عند « [illegible] » العجوز [illegible] الأشياء ٠٠

فقالت « لويزا » :

ـ كم أتمنى ألا يخيب السيد بوندرباى أملك ، ولكنه أكثر جفاء من أبى ولا تبلغ طيبته نصف طيبة أبى

فضحك « توم » وقال بتخابث :

– أستطيع أن أتعامل مع العجوز « باوندرباى » !

– كيف ؟ .. أم أن هذا سر ؟

فقال توم بمرح :

– اذا كان سرا .. فهو ليس ببعيد ! انه .. أنت يا لوو . فانت سيدته الصغيرة .. أليس كذلك؟ ولسوف يفعل أى شىء .. أى شىء من أجلك ، وأنت ستفعلين أى شىء من أجلى ، وعلى هذا – وبوضع النهايات معا كما يقول أبى – تكون المحصلة هى : أن السيد باوندرباى سيفعل أى شىء من أجلى !

وانتظر توم أن يسمع اجابة من أخته ، ولكنه لم يحظ بأية اجابة .. واخيرا قال :

– هل نمت يا لوو ؟

– لا .. فقط سرحت بخيالى ..

– « لا تسرحى يا لويزا » !!

هكذا صرخت السيدة جرادجريند وهى تدخل من باب حجرة الدرس ثم استأنفت قائلة :

– انك تعلمين تماما أن أباك قد منع السرحان .

– أجل .. أعلم يا أمى ، ولكنى كائن حى وقد كنت فقط أفكر فى أمور الحياة .. وكم هى قصيرة ؟ .. أليس كذلك ؟ ترى أى أشياء طيبة نستطيع أن نفعلها فى حياتنا القصيرة ؟

فقالت الأم فى دهشة :

– هذا هراء ! آه يا رأسى المسكين ! لويزا .. اياك .. اياك أن تسألى والدك مثل هذه الأسئلة الغبية !

الفصل الخامس

أصبحت حياة « سيسى » – سواء فى المدرسة أو فى ستون لودج – عبارة عن عاصفة من الحقائق والأرقام ، ولم يكن هناك سوى شعاع براق يلمع مثل النجمة وسط هذه العاصفة .. هذا الشعاع هو أملها فى عودة أبيها . وان كان السيد جراد جريند قد اعتاد أن يردد على مسامعها قوله :

– لن يعود يا « جوب » .. لقد رحل ولن يعود .. وهذا هو الواقع ببساطة !

وسرعان ما كرهت سيسى الحقائق والأرقام ،

وأيضا كرهتها الحقائق والأرقام ، فكانت ترفض أن تسكن فى رأسها . وقد أخبر المدرس السيد جراد جريند أن البنت رقم (٢٠) لا يمكنها حفظ الأرقام فقال له :

– انها حقا تعرف شكل الأرض ولكنها لا تريد أن تتعلم مقدار حجمها بدقة .

ورد عليه « جراد جريند » قائلا :

– هذا سىء للغاية ، ولكن .. لا تدعها تستريح .. لقنها بالحقائق والأرقام .. باستمرار !

فى البيت ، لم تكن « لويزا » قد تحدثت مع « سيسى » من قبل ، فالحياة فى (ستون لودج) تشبه الآلة البخارية ، تعمل بانتظام ما دام الناس لا يتدخلون فى عملها . ولكن فى احدى الأمسيات عرضت لويزا على سيسى أن تساعدها فى فهم درس صعب .. وبعدها دار بينهما هذا الحوار .. الذى بداته سيسى قائلة :

– آه .. انك ذكية جدا يا آنسة لويزا .. ولكم أتمنى أن أتحسن فى فهم الدروس .

- ان هذا لن يفيدك فى شىء يا سيسى .

- وهو أيضا لن يضرنى يا آنسة لويزا .

- لست متأكدة من هذا . انك أكثر عطفا على أمى .. وأكثر احتراما لنفسك منى .

- لكننى .. غبية جدا يا آنسة لويزا . وفى المدرسة أقع فى الكثير من الأخطاء .. هكذا يقول معلمى .

- حدثينى عن بعض هذه الأخطاء .

- حسنا ، اليوم مثلا ـ قال لى المعلم : (هذا البلد يملك خمسين مليون جنيه ، فهل هو اذن بلد غنى وسعيد ؟ .. البنت رقم (٢٠) ، هل تعيشين فى بلد غنى وسعيد ؟

- وبماذا أجبت يا سيسى ؟

- قلت .. لا أعرف ، لأنى لم أكن أعرف من يملك هذا المال ، وعما اذا كان لى نصيب فيه أم لا . وبالطبع كانت هذه اجابة خاطئة .. فهى ليست فى الكتاب .

فقالت « لويزا » :

- نعم ، كانت اجابة خاطئة .

وتابعت « سيسى » حديثها قائلة :

- ثم اختبرنى المعلم ثانية .. قال : (ان سكان كوكتاون يبلغون نصف مليون نسمةوفى كل عام يموت اثنا عشرة شخصا .. نتيجة سوء التغذية) .. ثم سألنى : (هل هذا شىء طيب أم شىء سيىء ؟ » .. وأجبت بقولى : (انه شىء سيىء جدا .. بالنسبة لهؤلاء الاثنى عشرة وعائلاتهم) ولكن الاجابة الصحيحة كانت .. أنه شىء طيب !! .. ولم أستطع أن أفهم !

- ليس هذا سهل الفهم .

فقالت « سيسى » بحسرة :

- كان أبى المسكين يريدنى أن أتعلم يا آنسة لويزا ، وأنا أيضا أحب أن أتعلم ولكن .. ولكنى لا أتوصل أبدا للاجابات الصحيحة .

- وهل كان أبوك يعرف الاجابات الصحيحة ؟

وهنا .. تذكرت « سيسى » أوامر السيد « جراد جريند » ، يجب عليها ألا تتحدث عن حياتها

السابقة ولا عن أبيها .. فنظرت بحزن الى لويزا ولم ترد على سؤالها .

فقالت لها لويزا بصوت يملؤه الحنان :

- هذا ليس سؤالا ضارا يا سيسى ، كما أن أحدا لن يستطيع سماعنا .

فقالت سيسى بتردد :

- كان .. أبى يستطيع الكتابة قليلا ، ولكنه لم يكن يعرف الكثير .

- وأمك .. هل كانت ماهرة ؟

- قال لى أبى أنها كانت كذلك .. فأنا لم أرها لأنها ماتت وهى تلدنى ، كانت تعمل ...

وبصوت هامس أكملت :

- كانت تعمل راقصة !

فسألتها لويزا بقوة حلم مفاجئة .. قوة الحلم الضائعة أو المختبئة فى دهاليز النفس المظلمة ... **سألتها :**

- هل كان أبوك يحبها ؟

- آه .. أجل ! كما كان يحبنى تماما ، بل انه أحبنى فى البداية لأجل خاطرها هى . ثم لم نفترق منذ ولدت .

- ولكنه تركك ورحل يا سيسى .

- فقط من أجلى يا آنسة لويزا .. من أجلى لا من أجل نفسه ، لا أحد يعرف أبى أكثر منى . انه لن يشعر بالسعادة أبدا .. حتى يعود .

- احكى لى يا « سيسى » .. احكى أكثر عنه ، ولن أسألك ثانية . اين كنتما تعيشان ؟

- كنا دائمى الترحال مع السيرك ، ولم يكن لنا أبدا وطن حقيقى .. أو بيت نملكه فى أى مكان ولم يكن أبى فارسا ممتازا .. فى الحقيقة !

ومرة أخرى خفت صوت سيسى حتى أصبح همسا وأكملت :

- كان مهرجا .

– تعنين كان يضحك الناس ·

– أجـــل · ولكنهم فى بعض الأحيان كانوا لا يضحكون ، وعندئذ كان أبى يبكى · وقد بكى كثيرا منذ جئنا الى هنا فى كوكتاون ·

– وأنت ·· هل كنت تسرين عنه عندئذ ؟

– كنت أحاول ···

ومن خلال دموعها قالت « سيسى » :

-- لكنه بدأ يخاف ، بدأ يظن أنه مهرج سىء ، كان يريدنى أن أصبح ذكية وماهرة ·· مختلفة عنه ·· اعتدت أن أقرأ له كثيرا ·· كانت كتبا خاطئـة ولكننا لم نكن نعرف هذا ·

– وهل كانت هذه الكتب تعجبه ؟

– أوه ! جدا !! كان ينسى كل متاعبه وأحزانه عندما أقرأ له ، واعتاد أن يسرح فى الخيال بالساعات مع الملك والجنيات ·

– وهل كان طيبا مع الناس الآخرين ؟

– دائما ·· دائما ! وأبدا ·· لم يحمل فى نفسه ضغينة لأحد ·

– هل كنت تتوقعين أنه سيتركك ؟

– لا ، ولكنى كنت أحس بتعاسته ·· !

فى هذه اللحظة دخل « توم » الى حجرة الدرس وكالعادة ·· كان يفكر فى نفسه فقط وينظر شـزرا للفتاتين ·

فابتسمت له لويزا وقالت :

– كنت أسأل سيسى بعض الأسئلة ، يمكنـك أن تمكث يا عزيزتى توم ·· ولكن لا تقاطعنا ·

– حسنا ، لقد حضر « باوندرباى » العجوز مع أبى ، فهلا أتيت وتحدثت معه ؟ ·· لو فعلت ربمـا دعانى للعشاء عنده الليلة ·

– حالا ·· سوف آت خلال دقيقة ·

– اذن سوف أنتظر ، فقط لأتأكد انك ستأتين

وهكذا استأنفت حديثها هامسة :

– كان أبى تعيسا لأن الناس لم يعودوا يضحكون على حركاته ، وهـــذا هو أسوأ شىء يمكن أن يحدث للمهرج · وقد سمعته يبكى فى المساء · كان يحاول أن يخفى وجهه عنى ، ولكنى سمعته ، وهو يقول · (يا عزيزتى ويا حبى يا سيسى) · وفى الصـــباح ضمنى الى صدره بقوة وقبلنى ، لم أقلق ·· لأنه كان يفعل هذا دائما كل صباح قبل ذهابى الى المدرسة · وعندما عدت الى المدرسة ·· لم يكن هناك !!

وهنا قاطعهما توم قائلا :

– هيـا · اسرعى يالوو ·· فالعجوز باوندرباى سيرحل ان لم يرك الآن ·

فهمست سيسى قائلة :

– هذا هو كل شىء يا آنسة لويزا ، أنا أعرف أنه سيعود أو على الأقل سيكتب لى ، أو سيكتب لى السيد سليرى · لهذا كلما شاهدت السيد جراد جريند

يحمـل رســـالة يتوقف قلبى عن الخفقان وأشـــعر أنى واثقة أنها من ···

ومرة أخرى قاطعهما توم بنفاد صبر بصوت عال:

– أو ، هيا يا لوو ·· ماذا تنتظرين ؟

ومنذ تلك الليلة ·· صارت لويزا تنظر بقوة فى عينى أبيهـا عندما كان يفتح رسـائله وفى بعض الاحيان ، كانت سيسى تجد فى نفسها قدرا من الشجاعة **فتسأل السيد جراد جريند قائلة ·**

– سيد جراد جريند ،هل هناك أى خطاب يخصنى يا سيدى ؟

وكانت لويزا تنتظر الرد بنفس اللهفة والرجاء اللذين كان يخفق بهما قلب سيسى ، ولكن ·· دائمـا كانت الاجابة :

– لا ، يا جوب ·· ليس هناك أية رسائل تخصك

وعندما كانت ســـيسى تذهب للمدرسة كان **جراد جريند يقول بصوت الحكمة :**

ـ الأمل ! ٠٠ انه سـم يسرى فى الدم ! لماذا لا تستطيع هذه الفتاة أن تفكر بحقائق الواقع فقط ؟

كانت « لويزا » هى الوحيـدة فى ستون لودج التى تعلم مدى قوة الأمل عند سيسى ٠ لقد كان الأمل ـ وهى تعلم هذا ـ قويا ٠٠ مجسما كالواقع تماما ٠٠ أما « توم » الابن فهو لا يفكر الا فى نفسه ،والسيدة جراد جريند المسكينة يكفيها رأسها المريض ٠٠ الذى لا يسكنه غير الألم !

الفصل السادس

كان « ستيفن بلاكبول » نساجا ٠٠ يعمل فى مصنع نسيج « جوزيه باوندرباى » ٠٠ يبلغ من العمر أربعين عاما ـ وان كان يبدو أكبر من هذا ـ وكان انحناء منكبية وشعره الرمادى ينبئان عن حياة قاسية عاشها ٠

ولم يكن « ستيفن بلاكبول » متعلما ـ وان كان بعض العمال يعلمون أنفسـهم بأنفسهم ، ويستعيرون كتبا كثيرة من مكتبة المدينة ويقرأونها ، وبعضهم أيضا يجيد فن الخطابة ، الا أن ستيفن لم يكن واحدا من

هؤلاء ٠ برغم أنه كان يحب القراءة ٠ وأهم ما كان يميز ستيفن بلاكبول فهو أنه نساج ماهر ورجـل شريف ٠

دق جرس المصنع فى مساء أحد الأيام ٠٠فتوقفت الآلات وأطفئت الأنوار واندفع الرجـال والنسـاء من البوابات الحديدية الى الشـارع ٠ وسار بلاكبول وهو يتلفت حوله كأنه يبحث عن شخص ما وبعد برهة صاح مناديا :

ـ « راشيل » !

فاستدارت نحو مصدر الصوت امرأة كانت تقف تحت مصباح من مصابيح الطريق ، رأى ستيفن وجهها الصغير الجميل وعينيها الرقيقتين ـ لم تكن « راشيل » فتاة صغيرة فقد كانت تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما ، صـاحت عنـدما وجدت أن من يناديهـا هو ستيفن ، وقالت :

ـ آه يا رجل ، أهذا أنت يا صديقى العجوز ؟

ـ نعم ، أما أنت فصغيرة كما كنت وكما ستكونين دائما يا راشيل ٠

فقالت راشيل ضاحكة :

ـ كلانا قد كبر يا رجل ، ولا حاجة بنا لاخفـاء هذه الحقيقة ٠

ـ هل يمكننى أن أسـير معك قليلا فى طريق العودة الى البيت ٠

ـ أجل ، فربما لا يجب أن نشاهد معا كثـيرا ولكن يجب أن أراك من وقت لآخر بالطبع

ـ لقد كنت دائما ٠٠ طيبة معى يا « راشيل » ٠٠ ولوقت طويل ٠٠ لهذا فطلباتك عندى قوانين ، وأنا أعلم أن الناس قد يتكلمون كثيرا حتى عنك أنت ٠

ـ أوه ، لا تذكر القوانين ياستيفن ٠

ـ معك الحق يا حبيبتى ، فالقـوانين دائمـا (ملخبطة) ٠٠ كم فكرت وفكرت ، ودائما أصـل الى نفس النتيجة ٠٠ (اللخبطة) !!

وعندما وصلا الى بيتها ، **صافحته مودعة وهى تقول :**

ـ سعد مساؤك يا ستيفن !

فرد عليها ستيفن بقوله :

ـ سعد مساؤك يا حبيبتى الأثيرة ٠٠ سـعد مساؤك !

ثم تابعها بعينيه وهو واقف حتى دخلت الى منزلها ٠ انه يحب راشيل ٠٠ يحب كل شىء فيها ٠٠ أصابعها الرقيقة ٠٠ وجهها ٠٠ صوتها ٠ كل شىء

كان « سـتيفن » يعيش فى غرفة واحدة فوق متجر صغير ٠ وعندما وصل الى البيت٠٠أشعل المصباح ووجد صاحبة المتجر نائمة فلم يوقظها ودخل مباشرة الى غرفته ٠ كان أثاث غرفته يتألف من سرير ومنضدة وبضعة كراسى ومكتب صغير ٠ وضع « ستيفن » المصباح على المنضدة ، وبينما هو يضع المصـباح ٠٠ اصطدم بشىء ما وكاد أن يسـقط فوقه !! ٠٠ امرأة ! ٠٠ نهضت من فوق الأرض مستندة على ذراع واحدة، **وما أن رآها ستيفن حتى صاح فى فزع :**

ـ يا للسماء ! هل عدت ثانية !

حاولت المرأة أن تعتدل جالسـة ، كانت ثملة وقذرة ، ثيابها كانت ممزقة ، رفعت شعرها بحركة عصبية فوقع وجهها على صـدرها **ثم ضـحكت ضحكة هيستيرية وقالت :**

ـ أجل يا رجل ٠٠ مرة ثانية ٠٠٠

ثم صرخت فيه قائلة :

٠٠٠ مرة ثانية وثالثة ورابعة ٠٠ لم لا ؟

ثم نهضت واقفة مستندة على المنضدة واستدارت الى ستيفن فجأة بنظرة ملؤها الغضب **وصاحت فيه :**

ـ سوف أبيع كل ما نملك ٠

ثم صرخت عاليا :

٠٠ سوف أبيع كل شىء ٠٠ عشرين مرة ٠ قم ٠ قم من فوق السرير ! ٠٠ قم ٠٠ انه ملكى ٠

وسارت نحو السرير ، فابتعد « ستيفن » عن طريقها وجلس فوق مقعد بجوار النافذة ٠

فألقت المرأة بنفسها فوق السرير وراحت فى النوم فى الحال ٠ أما « ستيفن » فقد جلس بجوار النافذة طوال الليل ، ولم يتحرك من مكانه سـوى مرة واحدة ليضع غطاء فوق المرأة النائمة ٠

فى الصباح التالى كان « ستيفن » يقف أمام نوله مبكرا ٠٠ كان هنـاك العديد من الأنوال والعديد من العمال فى مصنع باوندرباى ٠٠ وكان باوندرباى يسمى عماله « الأيدى » ٠٠ وعندما دق جرس المصنع معلنـا عن بدء فترة الراحة وهى ساعة يسمح بها باوندرباى لعماله كى يتناولوا غداءهم ، فخرج العمال لطعامهم ، بينما سار « ستيفن » فى الطرقات حوالى عشرين دقيقة لم يكن يشتهى أى طعام فى هذا اليوم ٠ ثم توجه الى منزل باوندرباى وطرق الباب ففتحت له مديرة المنزل **فقال لها فى أدب :**

ـ هـل لى أن أقابل السـيد « باوندرباى » ياسـيدتى ؟

فسألته مسز « سبارسيت » :

ـ ما اسمك ؟

ـ ستيفن بلاكبول مدام !

ولما لم يكن « ستيفن » قد سبب آية متاعب للسيد « باوندرباى » من قبل فقد سمح له بمقابلته فصحبته مسز « سـبارسيت » الى داخل البيت ، وعندما رآه السيد « باوندرباى » **بادره قائلا :**

ـ ما الأمر يا ستيفن ؟ أنا أعلم انك لم تأت للشكوى ، فأنت لست (يدا) غبيا تريد ملعقة ذهبية فى فمك !

ـ لا ، يا سيدى ٠ أنا لا أفكر فى الذهب !

ـ حسنا ، اذن ٠٠ ما هى المشكلة ؟

فنظر سـتيفن الى مسز « سـباريست » ، **فقال له باوندرباى :**

ـ هذه سيدة ٠٠ عظيمة ، برغم أنها تعمل الآن مديرة منزل ، فانها قد ولدت فى ظل الرفاهية ، واذا كنت لا تمانع فى وجودها هنا ٠٠ فانها ستبقى ٠

– لا أمانع يا سيدى ، فكلامى لن يكون جارحـا لسيدة رفيعة المقام مثلها ٠

– اذن تكلم يا ستيفن ، أنا أصغى اليك ٠

– لقد جئت طالبا النصح يا سيدى ٠٠ فأنا فى أشد الحاجة لنصحك ٠ فمنذ تسعة عشر عاما تزوجت فتاة جميلة ٠٠ كانت جميلة وطيبة ، ولكن ٠٠ سرعان ما انقلبت الى امرأة شريرة ٠ لم تكن غلطتى والله يعلم أننى لم أكن زوجا فظا ٠

– لقد سمعت عن هـــذا من قبل ، لقد أصبحت امرأة سيئة ٠٠ تشرب الخمر وتوقفت عن العمل وباعت أثاث بيتك وسببت لك الكثير من المتاعب ٠

– وكم حاولت أن أساعدها ٠٠ حاولت كثيرا ، لقد باعت ملابسى وأثاث بيتى ٠٠ ليس مرة واحـــدة بل عشرين مرة ، وكانت دائما تنفق كل المال على الشراب كانت تسير من سىء الى أسوأ ٠ ثم تركتنى ٠٠ ولكنها عادت ثانية ٠٠ كانت دائما تعود ٠ ماذا أصنع ؟ كثيرا

ما كنت أشعر بالخوف من العودة الى البيت ٠ وقـــد دفعت لها لتبقى بعيدا عنى ، كنت أدفع لها طوال خمسة أعوام ٠٠ لقد عشت حياة صعبة وحزينة ، ولكنى أبدا لم أشعر بالعار أو الخوف ، وأمس ٠٠ أمس عدت لبيتى مساء ٠ فوجدتها هناك ! ٠٠ كانت مستلقية على الأرض ٠٠ ثملة ؟

توقف ستيفن عن الكلام للحظات بدا فيها قويـا وفخورا بنفسه ، ولكن سرعان ما انحنى منكباه وبدا وجهه خاليا من أى تعبير ٠

وعقب السيد باوندرباى قائلا :

– كنت أعرف هذا منذ وقت طويل ، فيما عدا الجزء الأخير ان هذا لأمر سىء للغاية ٠ انها لمأساة مجرد أنك تزوجت ، ولكن ٠٠ فات أوان هذا الكلام الآن ٠

وهنا سألت مسز « ســـبارسيت » السـيد « باوندرباى » قائلة :

– هل كان يكبرها فى السن بكثير يا سيدى ؟

فحول « باوندرباى » السؤال الى « ســـتيفن » قائلا :

– هل سمعت سؤال السيدة يا « ستيفن » ؟ هل كنت تكبرها بكثير حين تزوجتها ؟

فأجاب « ستيفن » :

– لا ياسيدى ، كنت فى عامى الواحد والعشرين وكانت هى فى العشرين من عمرها ٠

فقالت مسز « سبارسيت » :

– ان هذا يدهشنى يا سيدى ٠ فان الفارق الكبير فى السن عادة يكون هو سبب التعاسة الزوجية ٠

نظر باوندرباى الى مديرة منزله بغضب ، وان كان هناك تعبير غريب – نصف خجل – قد ارتســم على وجهه ٠

ثم استدار ناحية بلاكبول قائلا :

– استمر يا ستيفن ٠٠ انى أصغى لك !

– كيف أستطيع أن أتخلص من هـذه المــرأة يا سيدى ؟ هل يمكنك أن تنصحنى ؟

– تتخلص منها ؟! ولكنها زوجتك يا رجـــل ! لقد تزوجتها حتى الموت ٠٠ موتك أنت أو موتها هى ٠

– يجب أن أتخلص منها والا ٠٠ سأجن ، كان من الممكن أن أجن بالفعل ، لولا انى أجـــد بعض السلوى ٠

– ممن ؟

– من أفضل فتاة فى العالم يا سيدى ؟

وهنا صاحت مسز سبارسيت وكأنها أمســكت بلص :

– آه ! انه يود أن يصبح حرا يا سـيدى حتى يتسنى له أن يتزوج من امرأة أخرى ٠

فقال ستيفن :

– أجل السيدة على حق ٠٠ ان الامر لا يكون مشكلة بالنسبة لرجل غنى فهو حين لا يصـــادف السعادة فى زواجه مع زوجته يمكنهما أن يعيشا فى حجرات منفصلة فى بيت كبير أو حتى يعيشان منفصلين

ويتقاسمان دخلهما ، بل يمكنهما أحيانا انهاء زواجهما بالقانون · فهل باستطاعة رجل فقير مثلى أن يفعل أى شىء من هذا · يجب أن أتخلص من تلك المرأة ، وكل ما أريد ·· هو ان اعرف ·· كيف ؟

فرد باوندرباى قائلا :

ـ لا يمكنك هذا !

ـ اذا ضربتها ·· فهل يعاقبنى القانون ؟

ـ بالطبع ستعاقب !

ـ واذا تركتها ·· فهل يعاقبنى القانون ؟

ـ بالتأكيد ·

ـ اذن ·· ماذا يحدث لو أنى تزوجت من المرأة الأخرى التى أحبها ؟

عند سماعها هذه الكلمات اغلقت مسز سبارسيت عينيها وكأنها تسمع شيئا مخزيا ·

وقال السيد باوندرباى لستيفن :

ـ سوف تعاقب ·

فقال ستيفن يائسا :

ـ سيد باوندرباى ·· أليس هناك أى قانون يمكن أن يساعدنى ؟

ـ الزواج يبقى مدى الحياة يا بلاكبول ·· انه شىء جاد جدا ·

ـ ولكن بعض الزيجات لا تستمر مدى الحياة ·· أنا أعرف هذا ·· لقد قرأت شيئا كهذا · فبعض الرجال يقتلون زوجاتهم كما أن بعض الزوجات يقتلن أزواجهن ·· لن أقتل زوجتى أبدا ولكن لابد أن هناك قانونا يساعدنى ·

فقال باوندرباى :

ـ هناك قانون ، ولكنه ليس لك ·· فهو يتكلف الكثير من المال ·

فسأل ستيفن بهدوء :

ـ كم ؟

ـ ألف جنيه ، ربما ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه

شحب وجه ستيفن وقال :

ـ اذن ، فأنا كنت محقا ··

ثم استأنف وهو يضغط على مخارج الكلمات مؤكدا :

ـ ان هذا (لخبطة) · لا أمل لى بالمرة ، سيكون أفضل لى أن أموت !

ورفعت السيدة سبارسيت عينيها للسماء ··

وقال السيد باوندرباى :

ـ ان ما تقوله هراء يا رجل ، فقوانين هذا البلد ليست (لخبطة) انك فقط لا تفهمها · ان عملك يبدأ وينتهى أمام نولك · اسمع ياستيفن بلاكبول ·· لقد كنت دائما ·· وحتى الآن ، نعم (اليد) وآمل

الا تكون فى طريقك لتصبح سيئا مثل بعض زملائك من الأيدى ··

فهز ستيفن رأسه وقال :

ـ أشكرك يا سيدى ·· نهارك سعيد

وبينما هو يسير خارجا قال مرددا :

ـ انها (لخبطة) ·· (لخبطة) كبيرة !!

الفصل السابع

بينما كان ستيفن يعبر الشارع خـــارج بيت السيد باوندرباى ، لمست ذراعه امرأة عجوز فالتفت اليها ٠٠ كانت طويلة ، منتصبة القامة ، رغم كونهـا كبيرة فى السن ، وكانت ملابسها أنيقة ونظيفة فيمـا عدا بعض الغبار العالق بحذائها ، ربما من السير فى طرقات المدينة ٠

سالته السيدة برقة :

ـ من فضلك يا سيدى ، ألست خارجا لتوك من منزل السيد باوندرباى ؟

ـ **أجل يا مدام** ٠٠

ـ عفوا سيدى ٠ ولكن هل تحدثت الى هـــذا السيد المهذب اليوم ؟

ـ أجل يا مدام ٠٠

ـ وكيف كان يبدو يا سيدى ؟ هل هو بخـــير ٠٠ هل كان كبيرا وجسورا ؟ ٠٠

بدت السيدة وكأن قلبها سيقفز من بين ضلوعها وهى تتحدث ٠٠ وهل كان صوته جيدا وقويا ؟

وخيل لستيفن أنه ربما يكون قـد رأى هـــذه السيدة من قبل ٠٠ **وأجابها :**

ـ أجل يا سيدتى ٠٠ كان فى خير حال و ٠٠ كما تصفينه تماما ٠

ـ شكرا يا سيدى ٠٠ شكرا جزيلا ٠

وأخذ ستيفن يفكر ويحدث نفسه قائلا ٠٠ لا أنا لم أر هذه السيدة من قبل ، ، ربما رأيتها فى حـــلم كما أنى لا أعتقد أنها تعجبنى كثيرا

ومشت السيدة العجوز الى جانبه تحدثه وتقـــول له أنها حضرت الى كوكتاون بالقطار هـذا الصباح ٠٠ ان لها كوخا صغيرا فى البلدة التى تبعد خمسين ميلا عن كوكتاون ، وأنه كان يجب عليها أن تسير تسعة أميال على قدميهـا لتصـــل الى محطـــة القطار ٠٠ **ثم اضافت قائلة :**

ـ وسأمشى تسعة أميال أخرى فى طريق عودتى الى بيتى الليلة ٠٠ أليس هذا شيئا طيبا فى مثـــل سنى ؟

ـ طيب جدا ، ولكن لا تفعـــلى هـــذا كثيرا يا سيدتى ٠

ـ لا ، لا أفعل هذا سوى مرة فى العام ، فأنا أدخر بعض المال على مدار السنة ، ثم أسافر وأحضر الى كوكتاون ، فأنا أحب رؤية النبلاء ٠ وكنت أتمنى رؤية السيد باوندر باى اليوم ، ولكننى رأيتك أنـــت ٠٠ وأنت رأيته ٠٠ اذن يجب أن أكون سعيدة لهذا !

لم يستطع ستيفن أن يفهم ٠٠ لماذا تتمنى هذه



المنازل فى برونون

السيدة رؤية السيد باوندرباى وهى لم تشرح له ..
بعد هنيهة قال لها :

ـ يجب أن أسرع والا تأخرت عن العمل ، فأنا نساج فى مصنع السيد باوندرباى ..

فنظرت اليه السيدة مليا وقالت :

ـ أولست سعيدا هناك ؟

ـ لكل انسان متاعبه يا سيدتى .

ـ أجل ، تعنى أن لديك بعض المشكلات فى بيتك أليس هذا ما تعنيه ؟

ـ أحيانا يا سيدتى .

ـ وهذه المشكلات لا تلاحقك فى العمل ، أم أنها تؤثر على عملك ؟

ـ لا ، يا سيدتى .

وصلا الى بوابة المصنع ، كانت « الأيدى » تسرع داخلة وكان الجرس يدق .. وبعد هنيهة بدأت الآلات تدور . **قالت السيدة :**

ـ انه لجرس جميل .. انه أجمل جرس سمعته فى حياتى ، منذ متى وأنت تعمل هنا يا سيدى ؟

ـ منذ .. دستة من الأعوام يا سيدتى .

ـ أوه ، يجب أن أقبل هذه اليد التى عملت فى هذا المصنع العظيم طوال اثنى عشر عاما .

وبالفعل قبلت السيدة العجوز يد ستيفن برغم أنه حاول أن يمنعها ، ولكنها فعلت هذا ببساطة وبحب .. لقد جعلت هذه القبلة تبدو وكأنها الشئ الصحيح فى المكان والتوقيت الصحيحين .. بعد هذا تركها ستيفن ودخل الى المصنع .

أخذ ستيفن يعمل أمام نوله فى استغراق طوال نصف ساعة متصلة ، وبينما هو يرفع بصره ـ صدفة ـ وينظر من خلال النافذة ، اذا به يجد المرأة العجوز مازالت واقفة فى الشارع تنظر الى جدران المصنع الداكنة والى سحائب الدخان السوداء وتعبير غريب يكسو وجهها .. كانت أصوات الماكينات تبدو وكأنها موسيقى حماسية جميلة تنساب فى أذنيها .. وأخذ

ستيفن بعد هذا يفكر فى هذه المرأة كثيرا هذا المساء .. كما أنه يفكر أيضا .. فى تلك المرأة القابعة فى بيته .

أخيرا انتهى اليوم ، كانت السماء تمطر حين خرج ستيفن من المصنع وأخذ يبحث عن راشيل ، فقد كان فى أمس الحاجة للسلوى والطمأنينة التى لا يستطيع أحد منحه اياها الا راشيل ، ولكن .. لابد أن راشيل عادت الى بيتها مبكرا اليوم لان ستيفن لم يرها .

بعد هذا قضى ستيفن وقتا طويلا وهو يتجول فى طرقات المدينة .. تحت المطر ، يفكر فى حياته الضائعة ، وفى حياة راشيل الضائعة أيضا .

منذ سنوات عديدة ، حدث راشيل عن متاعبه ، لم يتحدثا عن الزواج ـ بالطبع ـ ولكنها كانت ستتزوجه لو أنه كان حرا ، ولعلهما ـ لو كان قد حدث ـ كانا سينعمان سويا ببيت دافئ مريح .. أطفال .. حب .. احترام متبادل وشرف ، ولكنه بدلا من هذا كان مقيدا بالاغلال من يديه وقدميه الى امرأة سكيرة

قذرة ، وراشيل ترى كل صديقاتها وقد تزوجن وأصبح لهن بيوت وعائلات .. بينما هى تتمنى و .. تنتظر ستيفن .

كانت الساعة قد تعدت الثانية عشرة حينما عاد ستيفن الى غرفته ليجد المصباح مضاء وراشيل تجلس على حافة السرير وكأنما اضاء النور المنبعث من وجهها جنبات عقله المظلمة . **قالت له راشيل :**

ـ كم أنا سعيدة بعودتك أخيرا يا ستيفن . لقد تأخرت كثيرا .

ـ كنت أتسكع فى طرقات المدينة .

ـ لقد خمنت هذا . ولكنها ليلة غير ملائمة لمثل هذا ، لقد جئت هنا بعد الغداء مباشرة ، بعد أن تسلمت رسالة من السيدة صاحبة المتجر ، تقول فيها أن شخصا ما بحاجة الى المساعدة هنا وبالفعل كانت على حق .. وقد جاء الطبيب أيضا .. لقد آذت زوجتك نفسها ..

ولم يستطع ستيفن أن يرفع عينه فى وجه راشيل ، التى استأنفت كلامها :

ـ جئت لمساعدتها يا ستيفن ، فقد كنا نعمل سويا حين كنا صغارا ، وكانت صديقتى قبل أن تتزوجها ٠٠ بالطبع أنت أكثر عطفا وكرما من أن تتركها تموت أو تتألم ٠ أنا أعلم هذا ٠

ـ اوه ! راشيل ٠٠ راشيل !

حركت راشيل المنضدة الى حافة السرير ، كانت هناك عدة زجاجات عليها ، كتب على احداها باللون الأحمر : « سم » قرأ ستيفن هذه الكلمة فشحب لونه ، بينما سكبت راشيل بعضا من محتويات الزجاجة ومسحت بها على جرح فى عنق المرأة وقالت :

ـ يجب أن أفعل هذا مرة ثانية فى الساعة الثالثة صباحا ، ولهذا سأبقى حتى هذا الوقت ٠

ـ ولكنك يجب أن تنالى قسطا من الراحة ياراشيل ، فلديك عمل فى الغد ٠

ـ لا ، بل استرح أنت يا ستيفن ، فأنا نمت

جيدا الليلة الماضية فى حين انك تبدو مجهدا ٠ حاول أن تنام على هذا الكرسى ٠٠ هناك ، بينما أسهر أنا عليها ٠ تصور أنها لم تعرفنى يا ستيفن ، عندما أفاقت تمتمت بعض الهلوسة ثم راحت فى النوم ثانية قال الطبيب انها ستتحسن غدا ٠

استقرت عينا ستيفن مرة أخرى فوق أحرف كلمة (سم) المكتوبة على الزجاجة ، فارتعد واهتز كل جسمه فوقفت راشيل تريد أن تتحرك نحوه لتطمئن عليه ، ولكن ستيفن قال لها :

ـ لا ٠٠ اجلسى يا راشيل ٠٠ ابقى حيث أنت بجوار الفراش ، حيث رأيتك أولا ٠٠ لا يمكن أبدا أن تكونى أكثر جمالا من هذا ٠

كانت ليلة رهيبة ٠ أخيرا نام ستيفن ، ولكنه رأى فى نومه كابوسا مفزعا ٠٠ رأى أحرف كلمة « سم » وكأنها كتبت من نار ، وأبحر ستيفن فى أعوام المستقبل يبحث عن راشيل ٠٠ لكنه لم يعد يراها أو يسمعها كأن أحرف كلمة (سم) تطارده فى كل مكان ٠

وعندما استيقظ ستيفن وجد راشيل نائمة ، وهناك فوق المنضدة كانت زجاجة السم٠ تحركت المرأة الملقاة على الفراش ، ثم جلست وأدارت عينيها فى أرجاء الغرفة ، لم تتوقف عند راشيل النائمة فوق مقعدها ولكنهما استقرتا فى النهاية فوق الركن المظلم القابع فيه ستيفن ٠ كان ستيفن يعلم أن هاتين العينين الشرستين لا تنظران اليه ولكنهما كانتا تبحثان عنه فهى تعرف أنه بالغرفة ! لم يكن فى عينيه ما يتذكره ستيفن ، فالفتاة التى تزوجها ذات يوم لم يكن لها هذا الوجه المرعب ٠ انها الآن تبدو وكأنها حيوان يرقد فى الفراش ٠

لاحظت الزجاجة الموجودة فوق المنضدة فمدت اليها يدا معروقة ٠ لم يتحرك ستيفن من مكانه ، أخذت الزجاجة وفتحتها بأسنانها ـ ستيفن لا يستطيع ان يتحرك أو يتكلم ، كان يتساءل ٠٠ هل ما زال يحلم ؟ أم أن ما يحدث أمامه حقيقة ؟ وأخذ صوت ما فى داخله يصيح استيقظى يا راشيل !! استيقظى والا ماتت المرأة

رفعت المرأة زجاجة السم ببطء نحو فمها ٠٠ لحظة أخرى ولن يكون بمقدور انسان مساعدتها ولكن فى اللحظة التالية ٠٠ أنطلقت صرخة من راشيل وارتمت على الفراش تحاول أن تأخذ الزجاجة من المرأة التى قاومت من أجل الاحتفاظ بها وشدت شعر راشيل ولكن راشيل استطاعت أن تنتزع منها الزجاجة ٠

اندفع ستيفن للفراش وهو يصيح :

ـ هل أنا متيقظ أم حالم ؟ ماذا حدث يا راشيل ؟

ـ كل شئ على ما يرام الآن ٠٠ يبدو انى غفوت للحظات ٠

رأى ستيفن وجه راشيل الشاحب وشعرها المنساب ، ورأى آثار أظافر المرأة على خديها ، فعرف أنه كن متيقظا ٠ صبت راشيل بعضا مما فى الزجاجة فوق قطعة قماش ومسحت بلطف رقبة المرأة وهى تقول:

ـ الساعة الآن الثالثة ٠ أنا سعيدة أنى مكثت معكما ٠٠ انها بخير الآن وقد أديت عملى وهى لن تحتاج لما بقى فى هذه الزجاجة ٠٠

وذهبت نحو المدفأة والقت بمافي الزجاجة فوق الرماد البارد **ثم قالت :**

– سأعود لبيتي الآن ياستيفن ٠

فقال ستيفن :

– سوف آتي معك يا راشيل ، لا أحب أن أتركك تذهبين وحدك ٠

– لا ، بل انتظر معها ٠٠ سأكون بخير ٠

– ألا تخشين من تركي وحدى معها ؟

– لا يا ستيفن ٠

– آه ٠٠ **لقد** حملتني من جانب الشر الى جانب الخير ٠ انني أود أن أصبح مثلك ٠٠ لقد أنقذتني يا راشيل ، عندما رأيت السم قلت في نفسي : (ماذا يمكنني أن أفعل لنفسي أو لها ؟) ٠

وضعت راشيل يدها فوق فمه لتوقف هذه الكلمات ، **فأخذها** في يديه **وقال :**

– **لقد سهرت** بجوار فراشها ٠٠ سوف تكونين

دائما بجانبها يا راشيل ٠٠ في أفكاري ٠٠ ستكونين دائما بجانبي أنا أيضا ٠

ثم خرج معها الى الشارع ، **وقالت له في صوت منكسر :**

– سعد مساؤك ٠

كانت الأمطار قد توقفت وكانت النجوم تلمع في السماء ، **بينما قال ستيفن في نفسه** ٠

– ان راشيل هي نجمة حياتي المضيئة !

الفصل الثامن

ان الزمان نساج ماهر ، له أنوال أفضل من كل أنوال مصنع « جوزيه باوندرباى » ففي عامين – أو أقل – نسج من « لويزا جرادجريند » امرأة بالغة ، وجعل من « توماس الابن » موظفا في بنك السيد « باوندرباى » وأيضا جعل منه ضيفا دائما على بيت السيد باوندرباى ٠ ربما كانت حياة موظف البنك ليست بالحياة السهلة ٠٠ ولكن على أى حال – بعيدا عن البيت – كان توماس يجد الكثير من الوقت ليرفه عن نفسه ٠

وأيضا صنع الزمان من هذا النسيج الجميل « سيسى جوب » كائنا بديعا ورقيقا ، وان كان – الزمان – لسوء الحظ لم يستطع أن يغير كثيرا في عقل سيسى ٠٠ وبالطبع خاب أمل السيد جراد جريند لهذا ، وان كان حقيقة يحب سيسى لدرجة منعته من أن يغضب منها لعدم قدرتها على استيعاب الحقائق ٠

أما السيد جراد جريند نفسه فقد أصبح عضوا في البرلمان عن مدينة كوكتاون ، « عضو حقائق الواقع » كما كان يحب أن يعتقد ٠

وفي يوم من الأيام قال لسيسى :

– ان المدرسة لا تساعدك كثيرا يا « جوب » ؛ وارى أنه من الأفضل أن تتركيها ٠

واجابت الفتاة بقولها :

– أجل يا سيدى ، أخشى أن هذا صحيح ٠

– لقد تعلمت القليل من الحقائق والمعارف هناك٠

– هذا صحيح يا سيدى ، ولكنى حاولت ٠٠ حاولت بكل قوتى ٠

– أجل يا جوب لقد كنت أراقبـــك عن كثب ، وأعرف أنك حاولت ، ولكن يبدو أنك بدأت متأخرة – وتلك هي المشكلة .

فقالت « سيسى » ، بينما دموعها تنساب على خديها :

– أنا آسفة يا سيدى .

فقال « جراد جريند » :

– لا تبكى يا « جوب » .. لا تبكى ، فأنا لست متضررا منك ، فأنت شابة رقيقة ومحبوبة وطيبة القلب أيضا ، وهذا يكفى بالتأكيد .

فانحنت سيسى فى أدب جم وقالت :

– شكرا لك يا سيدى – شكرا جزيلا .

– لقد كنت نعم المعين لمسز جراد جريند ، وكنت كذلك على ما أعتقد بالنسبة للآنسة لويزا وأملى هو أن تكونى سعيدة معنا هنا .

– آه .. أجل .. بالتأكيد يا سيدى .

فى هذه اللحظة دخلت لويزا الى حجرة الدرس ، فاتجه اليها أبوها **وأخذ يدها فى يده وقال :**

– يبدو أنى أصبحت أفتقدك يا عزيزتى .. لقد أصبحت .. امرأة ناضجة ! أليس كذلك !

كانت اجابة لويزا الأولى هى نظرة فاحصة فى وجه أبيها ، ثم نظرت الى أسفل **وقالت :**

– أجل يا أبى .

– يا عزيزتى ، ان لى معك حديثا جديا . فهلا أتيت الى مكتبى غدا بعد الافطار .

– حاضر يا أبى .

– ان لدى مناقشة هامة هذا المساء .. لهذا .. تصبحين على خير يا عزيزتى فستكونين نائمة حينما أعود .

ثم طبع قبلة كبيرة على خـــدها .. **فردت عليه قائلة :**

– مساء سعيد يا أبى .

بعد حوالى ساعة وصل « تـــوم » الى « ستون لودج » .. كان سعيدا أن وجد أخته وحدها فى حجرة الدرس ، **وقد بادرته قائلة :**

– أوه .. « توم » .. لقد مضى وقت طويل منذ أن كنت هنا آخر مرة .

– حسنا «لو » .. ان عندى أشياء كثيرة تشغلنى فى المساء ، وباوندرباى العجوز يغـرقنى فى العمـل طوال النهار .. انه يصبح رجلا صـــعبا فى بعض الأحيان .. عندها أجد لزاما على أن أذكره بك ! .. خبرينى يا « لو » هل تحدث اليك أبى فى شىء ؟ .. الليلة أو أمس ؟

– لا يا توم ، ولكنه كان يود ..وسيحدثنى غدا صباحا .

– آه ! هذا هو اذن .. هل تعلمين أين هـو الليلة ؟

– لا ..

– سوف أخبرك . انه مع السيد باوندرباى

انهما يتحدثان .. فى المصرف . ولماذا هما فى المصرف ؟ سوف أخبـــرك أيضـــا .. حتى لا تسمعهما مســز « سبارسيت » !

واحتضن توم أخته وقربها اليه **ثم قال لها فى استعطاف :**

– انك تحبيننى يا « لو » أليس كذلك ؟

– بالطبع يا « توم » ولكن لماذا لا تأتى لترانى ؟

– انى أفكر فيك دائما يا « لو » .. من الممكن أن نكون معا دائما .. ربما . ستساعديننى كثيرا اذا قررت أن توافقى أبى .. سوف أكـون أسـعد شباب كوكتاون حظا !

كانت لويزا تحدق فى نار المدفئة ولم يستطـــع أخوها أن يستشف أى شىء من وجهها ، فاحتضنها بقوة وطبع قبلة على خدها .. فقبلته بدورها ، ولكنها ظلت تحملق فى النار .

فاستأنف توم حديثه قائلا :

– لقد جئت لأخبرك ، لكنى أعتقد أنك قد خمنت

الأمر بالفعل ·· أنا مضطر لأن أتركك الآن يا « لوو » فعندى حفلة الليلة ·· مع بعض موظفى المصرف ·· أنت لن تنسى حبك لى ·· أليس كذلك ·· ؟

– لا يا « توم » ·· لن أنسى ·

– أنت فتاة رائعة ! الى اللقاء يا « لوو » ·

– مساء سعيد يا « توم » ·

وأخذت لويزا تتابع أخاها وهو يسرع مبتعدا ·

أضاءت نيران مصانع كوكتاون سماء الليل بضوء أحمر ، حاولت لويزا أن تجد شيئا – أولا – فى نار المدفئة والآن تبحث فى السماء الحمراء · لقد جعل منها الزمان – النساج – امرأة ناضجة فيا ترى ماذا ينسج لها المستقبل ؟

جاءتها الاجابة بعد الافطار فى الصباح التالى قال لها أبوها :

– عزيزتى لويزا ·· أنا مسرور جدا بك وفخور أيضا بالنتائج التى حققتها فى تعليمك ، لقد خدمتك الحقائق جيدا ! فأنا لم أسمح مطلقا للخيالات الغبية

أن تحل فى هذا البيت ·· ان التصورات التافهة لم تسلب حياتك ميزانها المعتدل لهذا السبب أنا أعلم أنك ستوافيقننى الآن ··

وانتظر جراد جريند برهة ·· علها تقول شيئا ولكن لويزا ظلت صامتة · فاستأنف كلامه :

·· عزيزتى ·· ان سيدا مهذبا قد سألنى اذا كان فى امكانه أن يقترن بك ··

وانتظر جراد جريند ثانية ، لكنها لم تتفوه بكلمة فاندهش كثيرا حتى انه كرر ما قال :

– اذا كان يمكن أن يقترن بك !

فقالت :

– لقد سمعت يا أبى ·· انى مصغية ·

– حسنا يا عزيزتى ، أليس عندك ما تقولين ؟

– لا ·· حتى الآن يا أبى · من فضلك أخبرنى بكل شئ أولا ·

لم يبد على السيد جراد جريند الارتياح ، فالتقط مسطرة من مكتبه وأخذ يتأملها ثم قال :

– نعم ·· بالطبع ·· ها هى الحقائق كلها يا ابنتى ، ان السيد باوندرباى يقول : انه كان يلاحظك – وأنت تكبرين – بسرور بالغ ·· كان دائما يتمنى أن يتقدم لخطبتك يوما وهو يعتقد أن هذا اليوم قد جاء · وهو يتمنى أن تقبليه · هذه هى الرسالة التى أحملها اليك ·

خيم الصمت على الغرفة للحظات ثم قالت لويزا :

– أبى هل تعتقد أننى أحب السيد باوندر باى ؟

فشعر السيد باوندباى بعدم ارتياح وقلق ·· ثم قال :

– طفلتى ·· اننى حقيقة لا أعلم !

– أبى هل تريد منى أن أحب السيد باوندرباى ؟

– لا يا حبيبتى أنا لا أريد هذا بالتحديد ··

– وهل يريد منى السيد باوندرباى أن أحبه ؟

– للحق يا ابنتى ·· انه من الصعب الاجابة على سؤالك هذا ·

– هل من الصعب الاجابة بنعم أو لا يا أبى ·

– بل من الصعب أن نقول ماذا يعنى (الحب) يا ابنتى ؟ فأنت والسيد باوندرباى تهتمان بالحقائق لا بعالم الأوهام ·· ان الشباب الأحمق قد يتحدث عن الحب ، لكنى لا أستطيع أن أربط بين هذه الكلمة وبين عرض السيد باوندرباى للزواج منك ·

– اذن ماذا يجب أن أستعمل بدلا من كلمة الحب يا أبى ؟

– الحقائق يا عزيزتى ·· استعملى كلمة الحقائق ، انك فى العشرين من عمرك ، والسيد باوندرباى ربما كان فى الخمسين · الفرق فى السن بينكما ليس مهما فانكما متكافئان فى الوضع الاجتماعى وفى الثروة ، وفى معظم الزيجات يكون الرجل أكبر كثيرا من المرأة ·· هذا الوضع صحيح فى انجلترا وفى الهند وفى الصين وفى كل مكان ·

ظلت لويزا على هدوئها التام وقالت :

– أبى هل تعتقد أن هذه الحقائق يمكنها أن تحل محل الحب ؟

– بالتأكيد يا عزيزتى ! السيد بارندرباى طلب يدك للزواج · هذه حقيقة ، والحقيقة الهامة الأخرى هى ·· هل تقبلينه أم لا ؟ ·· انه شىء فى غاية البساطة ·

فقالت لويزا ببطء :

– هل أقبله ؟

كانت لويزا ترتعش ·· تمنت أن تلقى بنفسها بين ذراعى أبيها وتخبره بمكنون قلبها ، لكن توماس جرادجريند لم يلاحظ شيئا فقد كان هناك جدار عال بين عقله وبين المشاعر العادية · ومرت اللحظة كما مرت غيرها من اللحظات وفاتت الفرصة ·

ظلت لويزا صامته لفترة طويلة حتى **سألها أبوها :**

– فيم تفكرين يا عزيزتى ؟

فاجابت :

– ان الحياة قصيرة جدا يا أبى ·

– حسنا ·· الناس يعيشون الآن أطول بكثير مما كانوا يعيشون منذ خمسين عاما ·

– انى أتحدث عن حياتى أنا يا أبى ·

– دون شك ·· سوف تعيشين طويلا مثل معظم الناس ·

– انى أريد أن أفعل شيئا طيبا فى حياتى ·· لكن ·· ربما هذا لا يهم فالسيد باوندرباى يريد أن يتزوجنى ·· وأنا لا أحبه ، فاذا كان يفهم ذلك ·· فسأقبله ، يجب أن يأخذنى كما أنا ·· أخبره بهذا يا أبى أرجوك ·· بالضبط كما قلته ·

– سوف أخبره ·· ومن الواجب أن يقال كلامك كما قلته بالضبط · هل لديك أى فكرة لتحديد موعد الزواج ؟

– لا يا أبى · لا يهم ·

نظر اليها أبوها بحدة **ثم قال :**

– لويزا ·· ربما كان يجب أن أسألك سؤالا آخر ·· هل طلب أى سيد مهذب آخر منك الزواج ؟

فصاحت فى دهشة :

– أبى ! من تراه يسألنى ؟! وأى انسان قابلت ؟! وأين كنت حين قابلنى ؟ وأية تجارب تلك التى مر بها قلبى ؟!

– كان من واجبى أن أسأل يا لويزا ·

– أنا لا أعرف أى شىء عن آمال المرأة ورغباتها ولا ·· عن الحب ·

– هذا صحيح يا عزيزتى ، أنا سعيد لسماع هذا ·

– الأطفال يتمنون أن يصبحوا أمهات وآباء ولكنى لم أفعل · لقد دربتنى جيدا يا أبى بحيث لم أملك أبدا قلب طفلة ·

– بالتأكيد يا عزيزتى ! ان تربيتك تبعث على السعادة واليوم أحصل على المكافأة ، فالسيد باوندرباى رجل عظيم · والآن ·· دعينا نخبر والدتك ·

بالطبع ، كان السيد جراد جريند يأمل أن تكون لويزا سعيدة · كانت سيسى جالسة بجوار فراش

السيدة المريضة ·· حين سمعت الخبر ·· نظرت بحزن الى لويزا · كان هناك حب عظيم يطل من عينى سيسى ولكن ·· كان هناك أيضا شك كبير وكثير من الشفقة · لويزا أحست بهذا ومنذ تلك اللحظة تغيرت مشاعرها تجاه سيسى فأصبحت صامتة وباردة ، ولم تعد منذ هذه اللحظة صديقة سيسى ·· انها حتى لم تعد تتحدث اليها ·

الفصل التاسع

كان السيد « باوندرباى » يخشى – الى حد ما – أن يخبر مسز « سبارسيت » بأمر زواجه . كان يتساءل فى نفسه « ماذا يا ترى سيكون رد فعلها » ربما تترك المنزل فى الحال أو .. ربما لن تتحرك بوصة واحدة من مكانها ، ربما – كما كان يعتقد – يحطم قلبها أو .. ربما حطمت أثاث البيت .

أخيرا قرر أن يفاتحها فى هذا الأمر فقال لها :

– مسز « سبارسيت » .. سيدتى ، انك سيدة عظيمة .. كريمة المحتد ، كما أنك سيدة حكيمة أيضا .

– يسعدنى كثيرا أن يكون هذا هو رأيك يا سيدى .

– الآن .. سيدتى ، سوف أخبرك بشىء قد يدهشك ، فأنا أزمع الزواج من ابنة توم جراد جريند .

– حقا يا سيدى ؟! حسنا .. أتمنى لك السعادة يا سيد باوندرباى . آه .. أجل أتمنى هذا بالفعل . أتمنى من كل قلبى يا سيدى أن تحيا فى سعادة دائمة .

كانت تتكلم بكبرياء شامخة وأيضا .. بأسف شديد ! فأجابها « باوندرباى » بأدب جم :

– أشكرك .. مدام ، أنا أيضا أتمنى هذا ، ربما كنت لا تودين البقاء هنا بعد زواجى ، ولكننا بالطبع نرحب بك معنا ..

فهزت السيدة رأسها فى كبرياء وقالت :

– لا يا سيدى .. ليس فى امكانى البقاء ..

فقال « باوندرباى » بسرعة :

– اذن .. هناك شقة كبيرة فوق المصرف – مدام

– واذا قبلت العيش هناك فأعتقد أنك ستضيفين حيثية لمكان العمل وسأدفع لك نفس راتبك الآن و ..

فقاطعته مسز « سبارسيت » قائلة :

– أجل .. أجل ، لا حاجة بنا لمناقشة التفاصيل ، ان فكرة الشقة والسكن فوق المصرف تبدو جيدة ، اذا كان مركزى سيظل محفوظا كما هو الآن .

– أوه بالتأكيد يا سيدتى .. فما كان يمكننى أن أقترح أى شىء أقل على سيدة نبيلة لها مثل أصلك الرفيع .. بالطبع أنا رجل من الشارع ، ولكنك أنت تعودت على الرفاهية !

– أجل ، يا سيدى انك بالغ العطف .

– ان الحجرات فوق المصرف مريحة جدا ، ويمكنك أن تستخدمى امرأة لتنظيف المكان ، وفى المساء هناك رجل لحراسة المكاتب ، وبالتالى سيقوم بحراستك وخدمتك أيضا .

– لا تضف شيئا يا سيد باوندرباى ، فأنا أقبل عرضك شاكرة ...

ثم أضافت :

– ان الآنسة جراد جريند ستكون ما تتمنى و .. تستحق يا سيدى .

فقال « باوندرباى » بضيق :

– أجل .. أجل .. آمل هذا .

بعد هذا الحديث ، أصبحت مسز « سبارسيت » أكثر عطفا وأكثر أدبا مع السيد « باوندرباى » .. انه فى طريقه الى أن يتزوج الزوجة التى يريدها .. ويستحقها ، لكن نظرة الأسف لم تفارق وجه مسز « سبارسيت » ، هذه النظرة كانت تثير الحمرة والعرق البارد فى وجه السيد « باوندرباى » .

حدد موعد الزفاف وأصبح السيد « باوندرباى » يذهب الى (ستون لودج) كل مساء محملا بالهدايا الثمينة .. الفساتين والأحذية المصنوعة خصيصا للويزا . واتفق السيد باوندرباى والسيد جراد جريند على الدوطة (المهر) .. كان كل ما يتعلق بالزواج عبارة عن اتفاقات رجال أعمال و .. حقائق . الناس العاديون

يقولون ـ أحيانا ـ أن ساعات الحب تمر بسرعة شديدة أو ٠٠ أحيانا ببطء شديد ، ولـكن ٠٠ فى « ستون لودج » اليوم أربع وعشرون ساعة تماما ، واساعـــة ستون دقيقة بالضبط ٠

أخيرا ، جاء اليوم العظيم ، « جوزية باوندرباى » أغنى أغنياء كوكتاون تزوج « لويزا » ابنة « توماس جراد جريند » عضو البارلمان ٠ وتم الزواج فى أكبر كنيسة بكوكتاون ٠ وبعد المراســم والطقوس تناول الضيوف طعام الافطار فى « ستون لودج » وبعد الافطار **ألقى السيد « باوندرباى » كلمة قال فيها :**

« سيداتى وسادتى ، انا «جوزية باوندرباى» من (كوكتاون) ، وانه ليشرفنى ويشرف زوجتى أن نرحب بكم هنا ٠ أنتم جميعا تعرفوننى ، تعرفون أنى بدأت حياتى فى الشوارع وعلى هذا فلا تتوقعوا خطابا بليغا . صديقى ووالد زوجتى « توم جراد جريند » عضو فى البارلمان وهو الرجل الذى يمكنه أن يلقى عليكم خطابا بليغا ٠

انى أشعر بالفخر اليوم ٠٠ فطفل الشوارع القذر تزوج ابنة « جراد جريند » ! لقـــد رأيت السيدة فى نموها وأعتقد أنها تستحق أن تكـون زوجتى ، وفى نفس الوقت فأنتم توافقون على أنى أستحقها يضا ٠

شكرا سـيداتى وسادتى لكل امنياتكم الطيبـة لنا ٠ يمكننى أن أرى العديد من الضيوف غير المتزوجين حول هذه المائدة ، وها هى أمنياتى لهم ٠٠ أتمنى لكل رجل أن يجد زوجة مثل زوجتى ٠٠ وأتمنى لكل امرأة أن تجد زوجا مثلى ! » ٠٠

وبعد ساعة ، أصبح السيد والسيدة «باوندرباى» على استعداد للرحيل لقضاء شهر العسل ٠٠ ســوف يسافرون الى فرنسا ، فالسيد باوندربانى كان ينوى دائما أن يزور مصانع النسيج فى ليون . ولهذا ٠٠ سوف يذهبان الى ليون لقضاء شهر العسل !

وفى طريقها قابلت « لويزا » أخاها على درجات السلم ، **فهمس لها قائلا :**

ـ أنت أحسن أخت فى العالم ٠٠

فوضعت ذراعيها حوله ولكنها لم تستطع الكلام٠ **فقال هو :**

ـ ان باوندرباى العجوز قد استعد ٠٠ يجب أن تذهبى الآن ٠٠ الى اللقاء سوف أكون فى انتظارك حين عودتك ٠٠ أوه لوو ٠٠ اننى أسعد شباب كوكتاون بالقطع ، أليست الحياة رائعة !

الفصل العاشر

كان يوما قائظا فى كوكتاون ، الكل يعرف أنـه الصيف ، طبعا ليس لسطوع الشمس أو للظلال التى تلقيها على الشوارع ، فالناس فى كوكتــاون لا يـرون الشمس كثيرا ، لانها دائما تختفى خلف سحب الدخان المنبعثة من مصانع المدينة ولكن الكل يعرف أنه الصيف لأنه شهر يوليو ولأن المصانع أصبحت شديدة الحرارة٠

مر عام منذ زواج باوندرباى بلويزا ٠ وطوال هذا الوقت لم تحرر مسز سبارسيت باوندرباى من نظرات الشفقة التى كانت تلاحقه بها ، وفى هذا المساء كانت

نجلس فى النافذة المفضلة عندها ـ فلشقتها نافذتان تطلان على الشارع الذى يقع فيه المصرف ـ ولهذا تستطيع أن تشاهد ما يحدث فى المدينة · وفى كل صباح تراقب السيد باوندرباى وهو يعبر الشارع الى مكتبه ، وفى كل مساء تراه حينما يعود الى بيته ·· كانت ترى اشياء كثيرة أخرى ·

فى المساء حين يخيم الليل تصبح السيدة سبارسيت ملكة المصرف ، كانت تعتقد أنها هناك لتحرس المكاتب وخزانة المصرف .معظم أموال كوكتاون كانت فى هذه الخزانة بجدرانها الحديدية وأقفالها الثلاثة ، كما كانت مسز سبارسيت رئيسة للسيدة العجوز التى تطبخ وتنظف ··· بالاضافة الى أنها ترأس الحارس الشاب الذى يرقد كل ليلة على فراشه الموضوع أمام باب الخزانة ·

فى هذا المساء شاهدت السيد باوندرباى وهو يذهب ، وبعد عشر دقائق انصرف موظفو المصرف ثم أحضر الحارس اناء الشاى للملكة ··



منظر فى الشارع

ـ شكرا يا بيتزر !

ـ الشكر لك ·· سيدتى ·

هكذا أجاب الحارس على مسز سبارسيت ، كان شابا ذا شعر فاتح اللون ووجه شاحب لم يتغير كثيرا فى الخمس سنوات الماضية ، مازال يملك ذاكرة عظيمة فى حفظ الحقائق والمعلومات ، ولم ينس مطلقا البنت رقم (٢٠) ، **سألته مسز سبارسيت :**

ـ هل أغلقت كل الأبواب والنوافذ يا بيتزر ؟

ـ أجل ·· سيدتى !

لم يكن لدى مسز سبارسيت الكثير من الزوار لهذا كانت تستمتع بالحديث مع الحارس كل أمسية ، **وبينما هى تصب الشاى سألته قائلة :**

ـ ماذا عندك من الأخبار اليوم ؟

ـ لا شىء يا سيدتى غير أن العمال سببوا المتاعب ثانية ، ولكن هذا ليس جديدا أليس كذلك ؟

ـ وماذا فعلوا اليوم يا بيتزر ؟

ـ حسنا سيدتى ، لقد تحدثوا وتجادلوا بالطبع · انهم يحاولون انشاء نقابة لعمال النسيج '

ـ ان هذا سىء ، يجب على السيد باوندرباى وأصدقائه ان يمنعوا هذه السخافات فى الحال · هذه « الأيدى » يجب اخضاعها ، لن تكون هناك نقابات عمال فى كوكتاون !

ـ أنت على حق تماما ·· سيدتى !

ـ آمل أن يكون سلوك موظفى المصرف جيدا وأنهم يعملون بجد ·· هل يفعلون هذا يا بيتزر ؟

كان بيتزر يعمل أيضا فى المصرف أثناء النهار ، وكان واجبه هو أن يحمل الأخبار للسيد باوندرباى فهو يتسمع لحديث عملاء المصرف كما يتسمع لأحاديث الموظفين ·· فيعرف الكثير من الأسرار والتى يحملها أولا بأول الى باوندرباى · وعلى عكس سيسى جوب فان بيتزر قد تعلم حقائق المعرفة التى درسها فى المدرسة جيدا · ولم تكن هناك أية مشاعر انسانية تعتمل فى نفسه أو خيالات وهمية تسكن عقله · كان شابا يفخر

السيد باوندرباى والسيد جرادجريند بحسن تربيته وتعليمه ·

وقبل أن يجيب على سؤال مسز سبارسيت الأخير، صمت برهة ثم قال :

ـ أجل ، يا سيدتى · سلوكهم جيد جدا ، فيما عدا ·· السيد المهذب يا سيدتى ·

ـ آه ·· تقصد ·

ـ السيد جراد جريند الابن يا سيدتى ، فان بعض الشكوك تساورنى نحوه يا سيدتى ·

ـ أوه بيتزر ، أنا لا أحب أن أسمع أسماء ، لقد نبهت عليك من قبل ، أليس كذلك ؟

ـ حاضر سيدتى ، انى آسف !

ـ تذكر أرجوك ، اننى مسئولة عن المصرف فى الليل · ان السيد باوندرباى قد عرف لى ولعائلتى ـ مشكورا ـ قدرنا الاجتماعى ، لهذا يجب أن أكون أمينة معه ، ولا يمكننى أن أكون كذلك اذا استمعت الى

أسماء تكون ـ للأسف ـ مرتبطة به · لهذا أرجوك يابيتزر ·· استعمل كلمة (الشخص) ·· !

توجه بيتزر الى النافذة ووقف أمامها وأخذ فى الحديث :

ـ أجل يا سيدتى ، حسنا ، اذن الشخص الشاب يسلك سلوكا غير طيب ، وهو أيضا لا يعمل بجد ·· انه لا يعمل بجد اطلاقا منذ مجيئه الى المصرف ، فهو كسلان جدا ، كما أنه ينفق الكثير ويتعاطى الخمر بشراهة ولولا أن له صلة قرابة فى المصرف لما كان قد عين فيه أبدا ·

ـ آه ·· هممم

ـ كل ما أتمناه يا سيدتى ، هو ألا ينفق هذا الشخص أموال قريبه ، اننا يجب أن نشعر بالشفقة على السيد المهذب ·· السيد المهذب الذى عين هذا الشخص · يا سيدتى ·

ـ أجل يا بيتزر ، لقد كنت أشفق عليه دائما ، وسأشفق عليه أبدا ·

ـ ان الشخص الشاب تعود أن يبعثر أمواله ·· يا سيدتى !

ـ كان يجب عليه أن يحذو حذوك يا بيتزر ·

ـ أشكرك يا سيدتى · اننى أدخر جزءا كبيرا من راتبى ·· ولكنه لا يدخر شيئا ·

وفجأة استدار بيتزر من امام النافذة وتوجه بالكلام لمسز سبارسيت :

ـ هناك سيد مهذب يقف فى الشارع ، كان ينظر الى أعلى لدقيقة أو دقيقتين ، وهو الآن جاء الى الباب ·

وفى اللحظة التالية سمعوا طرقا على الباب . فتساءلت مسز سبارسيت قائلة .

ـ من عساه يكون ؟ لقد تأخر كثيرا عن موعد المصرف ، ولكنى المسئولة الآن ، ولهذا ·· ربما كان يجب على أن أقابله · افتح له من فضلك يا بيتزر .

وبعد دقيقة دخل بيتزر ومعه الزائر وقال :

ـ هذا السيد يود مقابلتك يا سيدتى ·

ودخل خلف بيتزر شاب أنيق جدا يسير بلا مبالاة ويتصرف بلا مبالاة ، وقد قررت مسز سبارسيت حال أن رأته أنه ·· (جنتلمان) ·

ثم تكلم الرجل :

ـ سيدتى ·· اسمحى لى من فضلك ·

قال الرجل هذا بينما كانت مسز سبارسيت تكون عنه صورة فى عقلها ·· « رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، له وجه مشرق وقسمات مليحة ·· أسنان قوية ·· صوت جميل وعينان جسورتان ، ثم قالت :

ـ تفضل بالجلوس يا سيدى ·

فقال الضيف :

ـ شكرا ··

ولكنه لم يجلس بل وقف بالقرب من المنضدة وقال :

ـ لقد تركت خادمى فى محطة القطار مع أمتعتى · ان هذه المدينة غريبة حقا · هل تمانعين فى الاجابة على سؤال يا سيدتى ، هل هى مظلمة هكذا دائما ؟!

ـ انها عادة ما تكون أكثر اظلاما ..

ـ لا يمكن !! عفوا .. اسمحى لى .. هل كنت تعيشين هنا باستمرار ؟

ـ لا يا سيدى ، فقط منذ وفاة زوجى . قبل هذا ، كنا نعيش فى ظروف مختلفة تماما .

ـ ألم تملى العيش فى هذا المكان ؟

ـ اننى رهينة لواقع مؤسف يا سيدى ، ولكنى تعودت عليه .

ـ ربما كان هذا من الحكمة ..

ـ هل لى فى سؤال يا سيدى ؟ .. لماذا أردت رؤيتى ؟

ـ بالطبع ، أشكرك لتذكيرى ، اننى أحمل رسالة للسيد باوندرباى .. تقدمنى له . لقد سألت رجلا عن البيت الذى يعيش فيه السيد باوندرباى فأحضرنى الى هنا ، ربما كان يظن أن المصرف ما زال مفتوحا ، ان السيد باوندرباى لا يعيش هنا .. أم تراه يسكن هنا ؟

ـ لا يا سيدى ، انه لا يسكن هنا .

ـ شكرا لك .

وأراح السيد احدى رجليه على زاوية المنضدة ، وقال ببطء :

ـ لن أسلم له الرسالة هذا المساء ، ولكن على الأقل كان يجب أن أعرف مكان المصرف بالتأكيد أعتقد أنك تعرفين أين يعيش السيد باوندرباى ، سأكون سعيدا لو أخبرتنى .

لم تجب مسز سبارسيت وسكتت لبرهة ، فرفع السيد المهذب رجله من على زاوية المنضدة وانحنى عليها وقال :

ـ لا بد أنك تتساءلين عمن أكون

ثم أخرج رسالة من جيبه قائلا :

ـ هذه الرسالة معنونة للسيد باوندرباى ، انها من جراد جريند عضو البرلمان ، لقد تعرفت عليه فى لندن .

فتحركت مسز سبارسيت نحو النافذة وأشارت

بيدها نبين للزائر مكان بيت السيد باوندرباى . فقال لها السيد المهذب :

ـ شكرا يا سيدتى .. أعتقد انك تعرفين السيد باوندرباى جيدا .

ـ أجل يا سيدى .. لقد عرفته لعشرة أعوام .

ـ وقت طويل ! لقد تزوج ابنة جراد جريند .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .. لقد حصل على هذا الشرف يا سيدى .

ـ حكى لى جراد جريند عنها ، انها امرأة ذات عقل مدهش ، ذكية جدا وصعبة المراس .. آه ! انك تبتسمين يا سيدتى ! ألا توافقين على هذا الكلام ؟ كم عمر السيدة ؟ خمسة وثلاثون أو .. أربعون عاما ؟

فضحكت مسز سارسيت وقالت :

ـ انها لا تزال طفلة ، لم تكن قد بلغت العشرين حين تزوجت .

ـ حسنا ! ان هذا يدهشنى ! لقد جهزت نفسى لمقابلة امرأة كبيرة حكيمة فى بيت السيد باوندرباى .

أشكر لك تصحيح فكوتى ، وأشكرك أيضا على معونتك . والآن يجب أن أرحل .. سعد مساؤك .

وهكذا رحل السيد المهذب ووقفت مسز سبارسيت تراقبه وهو يتهادى فى الطريق.وبعد دقيقة جاء بيتزر ليأخذ أدوات الشاى وقال :

ـ هذا السيد ينفق الكثير من المال على هندامه .

ـ حقا .. كانت ملابسه جميلة جدا .

ـ ولكنها لا تستحق المال يا سيدتى .. ربما هذا السيد لا يشقى كثيرا فى سبيل الحصول على المال .

جلست مسز سبارسيت أمام النافذة لساعتين أو ربما ثلاث ساعات ، لم تشعل المصباح حتى حين أصبحت الغرفة مظلمة .

كانت نيران مصانع كوكتاون تضىء السماء بضوء أحمر . أخيرا وقفت وتوجهت الى فراشها وصوت من داخلها يقول :

ـ أوه .. انك أحمق !!

من هو هذا الأحمق .. لم تخبرنا مسز سبارسيت !

الفصل الحادى عشر

« جيمس هارتهاوس » .. هذا هو اسم زائر مسز سبارسيت .. أصدقاؤه يدعونه « جيم » . وجيم هو الأخ الأصغر لأحد أعضاء البرلمان الذى كان صديقا حميما لمستر جراد جريند .

عمل « جيم هارتهاوس » لفترة كضابط فى الجيش ، ولكن كثرة الواجبات والالتزامات العسكرية أتعبته ولهذا ترك الجيش ، ثم خدم الحكومة البريطانية كموظف يتبعها فى بعض البلاد الأجنبية ولكن العمل كان شاقا فعاد جيم الى انجلترا ، ثم سافر بعد هذا الى

الشرق لكن الطقس ، كان حارا جدا بالنسبة له فعاد الى الوطن ثانية .. لقد اشتغل بالكثير من الأعمال لكن أيا منها لم يعجبه . وفى يوم من الأيام **قال له أخوه عضو البرلمان :**

ـ جيم ان رجال الواقع الصعب يبحثون عن رجال أكفاء ، لماذا لا تهتم بدراسة هذا الموضوع ؟

فاجاب جيم :

ـ هذه فكرة طيبة على الأقل .. ليس عندى خير منها فى الوقت الحالى .

وعلى هذا أعطى الأخ الأكبر جيم كتابا أو كتابين . واستغرق جيم فى دراسة الحقائق ، وفى نهاية الأسبوع شعر أنه أصبح ماهرا جدا .

بعد هذا قابل أخوه السيد « جراد جريند » فى البرلمان **وقال له :**

ـ توم .. اذا كنت تريد رجل حقائق فقابل أخى ، انه يستطيع أن يدبج خطبا رائعة وله طريقة ذكية .

بعد هذا بقليل وصل السيد «جيمس هارتهاوس» الى كوكتاون .. قابل مسز «سبارسيت» وأخذ غرفة فى الفندق ، وفى الصباح التالى أرسل خادمه الى منزل السيد باوندرباى حيث سلم الخادم رسالة السيد « جراد جريند » الى :

(السيد « جوزيه باوندرباى » ـ كوكتاون .

بخصوص تقديم السيد « جيمس هارتهاوس » .

من « توماس جراد جريند »)

وبعد ساعة وصل السيد باوندرباى للفندق وكان جيم ينظر حزينا من نافذة غرفة الطعام يحدث نفسه قائلا : « الحقائق ليست شيئا مثيرا ، خصوصا فى كوكتاون فقرر أن يستغرق فى شئ آخر ، عندما دخل الخادم محضرا السيد باوندرباى الذى **قال لجيم :**

ـ اسمى يا سيدى .. هو جوزيه باوندرباى من كوكتاون ..

ـ آه .. هذا شئ يدعو للسرور .

ـ هكذا رد هارتهاوس وان كان لا يبدو مسرورا

على الاطلاق . **واستأنف السيد باوندرباى حديثه قائلا :**

ـ حسنا يا سيدى . ان كوكتاون ستكون بالتأكيد مكانا غريبا بالنسبة لك ، لهذا .. اذا أصغيت الى .. أو حتى اذا لم تصغ فسأحكى لك شيئا عنها .

ـ أوه .. أرجوك ..

ـ ان سكان لندن لا يحبون مدينتنا عادة لأنها مظلمة ومملوءة بالدخان ولكن .. الدخان هو طعامنا وشرابنا يا سيد هارتهاوس وهو غير ضار على الاطلاق بل على العكس ! انه مفيد ـ فى الواقع ـ لأجسامنا.. لهذا تجدنا لا نريد أن نتخلص من دخان مدينتنا . بل نريد أن نحتفظ به .

قرر هارتهاوس أن يمضى فى هذه التجربة لهذا **قال .**

ـ أجل ، بالطبع يا سيد باوندرباى . أنا أوافقك تماما .

ـ أنا سعيد بهذا ، حسنا والآن اليك بعض الحقائق .. ان مجال عملنا هو صنع الملابس والنسيج .

انه أفضل وأسهل عمل في العالم و (الأيدي) عندنا تحصـــل على أجور أعلى من أى عمال آخـرين وليس بامكاننا أن نجعل مصانع نسيجنا أفضل من الآن ·· الا اذا فرشنا أرضياتها بالسجاجيد الهندية ·· ونحن لن نفعل هذا !

— معك الحق تماما يا سيد باوندرباى ·

— الناس هنا لا يرضون أبدا ·· انهم يريدون أفضل قطع اللحم الأحمر كل يوم ، ويريدون أن يأكلوه بشوكة من ذهب ! والآن هم يتحدثون عن نقابة عمال لهم ! هل سمعت مثل هذا الهراء من قبل ؟ حسنا ، ان عمالنا لن يحصلوا على مثل هذه الأشياء يا سيد هارتهاوس ·

— أعتقد أنك على حق تماما يا سيد باوندرباى !

— أنا أحب أن أفهم الرجل ، كما أن الرجل يجب أن يفهمنى ، لقد أخبرتك بالحقـائق ، ولســوف ·· أساعدك هنا على قدر اســتطاعتى · بقى عندى شىء واحد أحب أن أخبرك به يا سيد هارتهاوس انك تنتمى

لعائلة مهمة أما أنا فلا يا سيدى · اننى لست الا قطعة قذرة من الشارع حيث ولدت ·

— هذا يجعل كل شىء أفضل يا سيد باوندرباى !

— وأنا أعرف قذارة الشارع جيدا ، ولكننى نأيت بنفسى وارتفعت عنها يا سيدى ، بمجهودى الخاص وأنا فخور بنفسى ·· مثلك تماما · ربما كنت على علم بأنى تزوجت ابنة توم جراد جريند ، فاذا لم تكن مشغولا هذا الصباح ، فهل تتفضل باصطحابى الى بيتى ؟ فانه سيكون من دواعى سعادتى أن أقدمك لابنة توم جراد جريند ·

— يا سيد باوندرباى ·· لقد لمست أعز أمنياتى ·

وعندما قابل جيمس هارتهـاوس الســيدة باوندرباى ·· أحس بالنشوة ، كانت صـامتة وفى غاية الهدوء ، تبدو غير مبالية ولكنها كانت تتأمل الزائر عن كثب · وبقدر ما كانت مغرورة وباردة ·· كانت أيضا تشعر بالخجل لسلوك زوجها وأسلوبه الفظ ·

ان جيم لم ير فتاة مثلها من قبل ، كانت جميلة

بالرغم أنها كانت تحاول السيطرة على نظراتها · وقد خمن جيم أنها من النوع الذى لا يعتمد على أحد الا على نفسه ، كان يعتقد أنها لم تعان الحيرة مطلقا اللهم الا اذا كان كل شىء يدعو للشك · كانت تقف هناك ·· أمامه ·· ولكن عقلها كان يبدو شاردا وحيدا · لم يستطع جيم أن يفهمها ·· على الأقل حتى الآن ··

أجال جيم بصره فى الغرفة · لم يكن بها ما ينم عن لمسات المرأة وروحها · لا بهجة ·· ولا رفاهية ·· لا شىء يدل على ذكريات سعيدة · كانت الغرفة فقط ثقيلة وفاخرة الرياش و ·· قبيحة

وبعد تقديم السيد هارتهاوس قال باوندرباى :

— لوو ·· ربما أصبح لكوكتاون — عن قريب — عضوان فى البرلمان ·· أبوك والسيد هارتهاوس · ان السيد هارتهاوس قد جاء ليتعرف على المكان ··

ثم توجه بالحديث لجيم قائلا :

— كما ترى يا سيدى ، فان زوجتى تصغرنى فى العمر · أنا لا أعرف لماذا تزوجتنى ولكن ·· لا بد أن

لديها أسبابها · انها تعرف كل الحقائق والمعارف التى فى العالم أجمع ، يا سيد هارتهاوس ، اذا كنت تريد أن تتعلم بسرعة فليس فى استطاعتى أن أقترح عليك معلما أفضل من لوو باوندرباى ··

فقال هارتهاوس :

— كلى ثقة أنه لن يكون هناك من هو أفضل ·

— اننى غالبا لا أحسن اطراء الناس،لم أتعلم هذه العادة · فأنا لا أعد من النبلاء ، سيد هارتهاوس ، أنا جوزيه باوندرباى من كوكتاون وحسب ، وهذا يكفينى · اننى لا ألقى بالا لطريقة الشخص أو مكانته ·· آخرون غيرى يفعلون ، أعرف هذا ، أما أنا فلا ··

فابتسم جيم للويزا وقال :

— ان السيد باوندرباى مخلوق نبيل يحيا حياة برية منطلقة ! أما أنا ·· فلست الا شيئا مسكينا تم ترويضه !

فقالت لويزا بهدوء :

ـ انك تجل السيد باوندرباى كثيرا ، وأنا غير مندهشة لهذا ·

فى الواقع ان الذى اندهش هو جيم ·· لأنه لم يفهمها ··

ثم قالت لويزا :

ـ انك تنوى خدمة بلدك . وتأمل فى أن تجد حلولا لكل مشاكلها ·

فضحك جيم وقال :

ـ لا ، يا مسز باوندرباى ، لست أسعى لايجاد أية حلول · لقد رأيت الكثير ، هنا وهناك ، لأنى سافرت بعيدا · ولكن كل ما رأيته كان عديم الأهمية ·· كل ما رأيته بدا لى عديم الأهمية ، انى أسلك هذا الطريق بناء على آراء والدك لأنها آراء طيبة ، مثلها مثل آراء أخرى ·

فسألته لويزا :

ـ أو ليست لديك أراؤك الخاصة يا سيد هارتهاوس ؟

ـ لا ·· على الاطلاق · وليس مهما أن تكون لى آرائى ، ان أى مجموعة آراء ستكون على قدر مماثل من الجودة مثل غيرها ! ·· أو على قدر مماثل من الضرر مثل غيرها ! يا مسز باوندرباى ان المثل الايطالى يقول « ان ما قدر له أن يكون ، حتما سيكون » وهذه هى الحقيقة الوحيدة · ألا توافقين ؟

هذا النوع الخطر الذى يفتعل الاخلاص بدا وكأنه أعجب السيدة · ولهذا **استطرد جيم بسرعة :**

ـ ان الحقائق والأرقام يمكنهـا أن تكون مملوءة بالمتعة · انها تعطى أحسن الفرص للانسـان . اننى أستمتع بها جدا ، ولكننى ·· لا أصدقها · ولهذا فأنا سأعمل من أجل الحقائق والواقع ! ولم يكن باستطاعتى أن أفعل أكثر اذا كنت أصدقها ·

فقالت لويزا :

ـ انك ستصبح عضوا غير عادى فى البرلمان ·

ـ ليس صحيحا على الاطلاق · فنحن جميعا لنا نفس الأفكار ولكن ·· قليل منا الأمين بدرجة تكفى لأن يصرح بهذا ·

وأثناء هذه المحادثة بدا أن السيد باوندرباى على وشـك الانفجار · أصبح وجهه ككرة كبيرة حمراء **وقد قاطع الحوار فجأة قائلا :**

ـ سيد هارتهاوس ، انه ينبغى أن تزور بعضا من أعيان هذه البلدة وأنا جاهز لاصطحابك الآن · بعد هذا لا بد أن تتناول طعام العشاء معنا هذا المساء ·

وهكذا تمت الزيارات وقد تكلم هارتهاوس جيدا مع كل السادة والوجهاء ، ولكن العمل أتعبه وعلى مائدة العشاء فى منزل السيد باوندرباى ، كانت هناك أربعة مقاعد ، ولكن الجالسين كانوا ثلاثة فقط وقد أخذ السيد باوندرباى يتحدث عن الشارع حيث ولد ، بينما كانت الحسابات الطويلة قد أتعبت السيد هارتهاوس بالفعل ،

حتى أنه فكر أن يذهب الى الهند ثانية أو أن يذهب الى مصر ، ربما فعل هذا لو لم تملأ لويزا حيزا كبيرا من أفكاره · **كان يتساءل فى نفسه قائلا :**

ـ هل هناك شىء فى العالم ·· يمكنه أن يحرك **عضلات وجهها ؟!**

أجل ، هناك هذا الشىء ، فقد فتح الباب ودخل أخوها توم فتغير وجه السيدة بمجرد أن رأته · كانت لها ابتسامة جميلة حقا ! مدت يدها وعانقت أصابعها أصابع توم بقوة ، **فقال جيم فى نفسه :**

ـ « آه ·· نعم ·· ان هـذا الجرو هو حبهـا الوحيد » !

وتم تقديم الجرو وجلس الى المائدة ، لم يكن اسما لطيفا ، ولكن ربما كان توم يستحقه ·

قال باوندرباى :

ـ لقد تأخرت يا توم الابن ، لماذا ؟

ـ كان عندى عمل كثير يجب أن أنهيه ، على أى حال لا يهم أنى تأخرت ، أليس كذلك ؟

فقال باوندرباى :

ـ ان الشباب لا يجب أن يتأخروا عن موعد الطعام .

وفهم جيم مشكلة هذا المنزل . **قال محدثا لويزا :**

ـ مسز باوندرباى . ان وجه أخيك يبدو مألوفا لى فهل ترانى قابلته فى المدرسة ، أو فى الشرق . ربما ؟

فاجابت لويزا قائلة :

ـ ، لقد تعلم هنا ، فى البيت وهو لم يسافر خارج انجلترا للآن .. أم نراك سافرت يا توم ؟

ـ لم أكن محظوظا بما فيه الكفاية يا سيدى لكى أسافر خارج انجلترا ..

وطوال العشاء كان جيم يفكر فى مسز باوندرباى

وأخيها ، لم يكن هناك الكثير فى الشاب الصغير . كان غرا .. وكان أحيانا فظا حتى مع أخته ، **فقال جيم فى نفسه :**

ـ « لابد أن قلبها يعانى الوحدة ، فاذا كان هذا الجرو يستحوذ على كل حبها ، فان قلبها حتما يعانى الوحدة » !!

الفصل الثانى عشر

بعد العشاء وأثناء الأمسية التى قضاها « جيم » فى منزل عائلة باوندرباى،حاول «جيمس هارتهاوس» أن يشجع « توم » الابن على الكلام .. كان ينوى أن يجعله يحبه . أخيرا حان وقت ذهاب جيم الذى قال أنه لا يستطيع تذكر طريق العودة الى الفندق فعرض الجرو أن يصحبه ليريه الطريق . وفى الفندق أمر جيم بالشراب له ولصديقه ، وجلس توم على مقعد طويل مريح . كانت المشروبات التى أحضرها الساقى قوية . **وبدأ « توم » الحديث قائلا :**

ـ حسنا . مسيو هارتهاوس هل برمت بالسيد باوندرباى الليلة ؟

ـ انه شخص ممتاز .. !

ـ هل تعتقد هذا .

فابتسم « هارتهاوس » بلا مبالاة وقال :

ـ ان له أخ زوجة ظريفا ..

فقال « توم » :

ـ أنت تقصد ، أن باوندرباى العجوز زوج أخت مضحك للغاية .

ـ أوه ! هذا ليس لطيفا يا توم !

كان توم مسرورا بنفسه ومعجبا بهارتهاوس .. وبملابس هارتهارس .. بصوت هارتهاوس ، كما أعجبه أن يناديه بتوم .. هكذا بسرعة . كانت أمسية رائعة !

قال « توم » :

— انى لم أكن أى حب لباوندرباى العجوز فى يوم من الأيام ، ولست أنوى أن أفعل .

— انك لا تستطيع أن تقول هذا الكلام بالقرب من زوجته . أم تراك تستطيع ؟

— أختى ؟ أوه أجل ! ..

وأخذ « توم » جرعة كبيرة من كأسه **ثم استأنف حديثه قائلا :**

— ان « لوو » لا تحب باوندرباى العجوز هى الأخرى !

فقال « هارتهاوس » :

— انك لا تعنى ما تقول !

— بل .. اعنيه . ان هذا صحيح .. انها لا تحبه .

— ولكنها تزوجته يا توم ويبدو انهما يعيشان فى سعادة سويا .

— أنت تعرف أبانا . أنه ليس بالأمر المدهش ان تتزوج « لوو » من « باوندرباى » العجوز . انها لم تعرف فى حياتها رجلا آخر وقد اقترح أبى « باوندرباى » العجوز وقبلته « لوو » .

— هذا هو واجب البنت الطيبة !

— بل قل .. واجب الأخت الطيبة ..

لم يعلق هارتهاوس **بينما استطرد الجروفى الكلام :**

— لقد أقنعتها ان تتزوج باوندرباى العجوز ، فقد كنت أقحمت على مصرفه بالرغم من أنى لم أكن أود ان اعمل هناك ، واذا كانت لويزا قد رفضت باوندرباى العجوز ، فانى كنت سأقع فى متاعب كثيرة لقد أخبرتها بهذا ووافقت هى على الزواج به .. انها كانت على استعداد أن تفعل أى شيء من أجلى .. انها طيبة جدا .. أليس كذلك .

— جدا !

— لم يكن مهما بالنسبة لها أن تعرف رجلا آخر فبيتنا كان كالسجن .. خاصة حين غادرته أنا .. ولكن الأمر كان هاما بالنسبة لى فقد كان على أن أفكر فى رفاهيتى وربما فى مستقبلى ، ولو كانت طيبة جدا فيما يتعلق بهذا .

قال هارتهاوس وهو يصب مزيدا من الشراب :

— أجل بالتأكيد ، وهى تبدو سعيدة تماما .

— حسنا ، ان الفتاة يمكن أن تكون سعيدة فى أى مكان بالاضافة الى ان « لوو » ليست فتاة عادية . ففى امكانها أن تغلق على نفسها داخل نفسها وتفكر .. فقط تفكر أحيانا بالساعات !

— أجل ، أجل ، ويمكنها أن ترفه عن نفسها !

— لا .. لا أعتقد هذا فقد ملأ أبى عقلها بكل أنواع المعلومات والحقائق الجافة . هذه هى طريقته

— لقد شكلها .. جعلها مثله تماما ؟

— أجل وفعل نفس الشيء مع كل من حوله لقد شكلنى أنا أيضا بنفس الطريقة !

— لا يا توم ، لست أنت !

— بل فعل يا سيد هارتهاوس ، لقد كنت غبيا تماما .. كنت حمارا .. عندما تركت البيت لم أكن أعرف أى شيء عن الحياة .

— أوه ! .. هذه نكتة يا توم ، أنا لا أصدق هذا .

— بل هى الحقيقة ! ..

ومرة أخرى أخذ توم جرعة كبيرة من الشراب ووضع قدمه فوق المقعد **واستطرد قائلا :**

— بالطبع . لقد تعلمت القليل منذ هذا الوقت وقد فعلت هذا بنفسى ولا فضل لأبى فيه .

— وأختك الذكية ؟

— أختى الذكية لم تتغير ، فقد اعتادت أن تشكو لى أنها لا تتمتع بأفكار الفتاة العادية وأنها

لا تعرف أى شيء عن الحياة وعن الحب • ولكن البنات يختلفن عن الرجال •• لأنهن لا يحتجن الكثير •

توقف توم عن الكلام فقد راح فى النوم وهو على المقعد ، فركله هارتهاوس وهو يقول :

— ان الوقت متأخر ، قم وعد الى البيت !

فوقف توم وقال :

— هذه المشروبات كانت جيدة ولكنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية بالنسبة لى •

— لا لم تكن قوية بما يكفى •

— كانت مثل الماء •• آه •• حسنا ، طاب مساؤك •

وحمل الساقى توم الى الشارع • كان باستطاعته أن يمشى الى البيت وحده ، لكن •• لم يكن باستطاعته أن يتذكر ما قال !

الفصل الثالث عشر

شكل عمال النسيج فى كوكتاون نقابة تحت قيادة « سلاكبريدج » • لم يكن سلاكبريدج عاملا بل كان متحدثا وخطيبا وحسب ، كان يريد أن يحصل العمال على أجور أعلى وظروف معيشية أفضل • وبالرغم من أن سلاكبريدج لم يكن رجلا عادلا أو أمينا جدا •• الا أن العمال وافقوا عليه وانضموا جميعا — ماعدا رجل واحد — الى النقابة ، وفى كل أسبوع كان العمال يدفعون بعض البنسات لسلاكبريدج •

وفى احدى الأمسيات ،عقد العمال جميعا اجتماعا

فى صالة واحدة كبيرة • رأس الاجتماع أكبر العمال سنا • وفى هذا الاجتماع أخذ سلاكبريدج يخطب ويثنى على النقابة وفى نفس الوقت يذكر بسوء هذا الرجل الذى رفض الانضمام للنقابة •

فصاح أحد المجتمعين :

— من هو هذا الرجل ؟ اذا كان هنا الليلة فدعه يتكلم !

وفى الحال تصاعدت أصوات كثيرة :

— نعم ، فلنستمع اليه ، يجب أن يأخذ فرصته فى الكلام !

فصعد رجل على المنصة • كان وجهه يبدو مرهقا وينم عن كبر فى السن ، ولكنه أيضا •• كان وجها شريفا • **فقال الرئيس :**

— ان السيد سلاكبريدج يجب أن يكون عادلا ، ولهذا يجب أن يجلس بينما نصغى جميعا « لستيفن بلاكبول » وانكم جميعا تعرفون ستيفن الطيب وتعرفون مشكلته •

بعد هذا صافح الرئيس ستيفن بلاكبول ثم جلس •• وجلس سلاكبريدج أيضا • **ثم بدأ بلاكبول فى الكلام :**

— أيها الزملاء •• اننى العامل الوحيد فى مصنع نسيج باوندرباى الذى لم ينضم الى النقابة • ولن أنضم اليها • ان النقابة لا يمكنها أن تساعدنى ، كما انى لا أعتقد أنها ستساعدكم • كما ان لدى أسبابى الخاصة لعدم الانضمام لهذه النقابة ، وهى أسباب سرية ولكنها على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لى :

فانتفض سلاكبريدج من مقعده **وأخذ يصيح :**

— هذا الرجل سوف يدمركم •• سوف يدمركم أنتم وأطفالكم وأطفال أطفالكم •

فقال ستيفن :

— ان السيد سلاكبريدج خطيب والخطابة هى صنعته وهو يأخذ أجره عليها ، اذن فليؤد عمله ولتدعونى أؤدى عملى ، انه لا يعرف آلام حياتى •• انها مشكلتى •• مشكلتى وحدى •

فصاح أحد الحاضرين قائلا :

ـ اجلس يا سلاكبريدج دع الرجل يأخذ فرصته في الكلام !

فاستأنف ستيفن حديثه :

ـ زملائي العمال .. انني أعرف ما سيحدث . فاذا لم أنضم لنقابتكم فانكم ستعزفون عن صداقتي . ولا بد لي أن أتقبل هذا .

فقال الرئيس في تودد :

ـ فكر مرة أخرى .. قبل أن يفوت الآوان .

فرد ستيفن :

ـ لقد فكرت في الأمر كثيرا يا سيدي ، فوجدت أني ببساطة .. لا أستطيع الانضمام لنقابتكم .

لم يكن ستيفن غاضبا من هؤلاء الرجال ، انه يعرفهم جيدا وهم أيضا يعرفونه .. ولهذا استمر في حديثه معهم في ود ظاهر قائلا :

ـ كل ما يجب علي أن أفعله هو أن أعمل ..

بمفردي .. بينكم . وآمل أن تسمحوا لي بذلك .. لأني يجب أن أعمل لأعيش يا أصدقائي . لقد عملت في كوكتاون منذ طفولتي .. فأين عساي أن اذهب الآن ؟

وران الصمت على المكان .. نزل ستيفن من فوق المنصة وتحرك الرجال فأفسحوا له طريقا الى الباب .. لم ينظر ستيفن في وجه أي منهم ، وسار مباشرة نحو باب الخروج وفي دقيقة كان خارج القاعة ..

صاح سلاكبريدج :

ـ ليس بيننا مكان لرجل شرير .. يا عمال كوكتاون قوموا بواجبكم ! والآن فلنهتف ثلاثا لنقابتنا !

وصرخ الخطيب بأول « هوراه » .. ثم شاركه عشرون صوتا في الثانية .. ثم صاح الجميع بالثالثة .

وهكذا بدأ ستيفن بلاكبول حياة وحيدة .. موحشة . فلم يعد ينظر في وجهه رجل في المصنع أو في الشارع .. ولا أحد يكلمه ولو كلمة واحدة ، حتى النساء اللاتي كان يعمل معهن التزمن الصمت . حقا

ان ستيفن كان دائما رجلا هادئا .. ولكنه الآن يشعر بوحشة كاملة . لم يعد يرى راشيل وفي نفس الوقت هو يخاف أن يبحث عنها .

وأصبحت الأيام التي أعقبت الاجتماع ثقيلة وطويلة . وفي الليلة الرابعة غادر ستيفن المصنع في موعده المعتاد وبينما هو سائر أوقفه شاب له شعر فاتح اللون .. كان بيتزر !

قال بيتزر لستيفن :

ـ أنت بلاكبول أليس كذلك ؟

ومن فرط سعادة ستيفن لسماع صوت انسان يخاطبه ، رفع قبعته تحية للشاب واجابه :

ـ بلى ، يا سيدي .

ـ ان السيد باوندرباي يريد أن يراك . فهل تعرف أين يسكن ؟

ـ أجل .

ـ اذن اذهب اليه .. انه في انتظارك !

وبصوت عال سأل باوندرباي ستيفن بلاكبول قائلا :

ـ حسنا ، يا ستيفن ماذا فعل بك رعاع كوكتاون ؟

كان في الغرفة أربعة أشخاص يتناولون الشاي .. السيد باوندرباي ، زوجته ، أخوها ، والسيد النبيل القادم من لندن . بينما وقف ستفن يحتضن قبعته عند الباب استأنف باوندرباي حديثه قائلا :

ـ هيا .. أسرع يا ستيفن ، خبرني ، فهأنذا أنتظر .

يا له من صوت أجش .. لم يكن ستيفن يحب سماعه خاصة بعد أربعة أيام من الصمت التام .. وقال ستيفن .

ـ لقد تسلمت رسالتك يا سيدي .. ان شابا قال لي أنك تريد أن تتحدث الي .

ـ حدثني عن نفسك .. وعن هذه النقابة !

ـ آسف يا سيدي . ليس عندي ما أقوله في هذا الصدد .

فزفر باوتدرباي بصوت كصوت رياح عاتية .. ثم قال :

ـ هل تسمع هذا يا هارتهاوس • هذا واحد من « الأيدى » التى تعمل عندى • وقد كنت أعتقد أنه بدأ ينحدر • وقد حذرته ، والآن هؤلاء الحمقى وصموه وهو يخاف أن يفتح فمه !

ـ لست خائفا يا سيدى ، ولكن ليس عندى شىء أخبرك به •

ـ هذا مضحك يا ستيفن ! هل تريد أن أصدق أن « سلاكبريدج » لا يسبب المشاكل هنا •

ـ أنا أسف يا سيدى • فعندما يكون زعماء الناس اشرارا فهذا ليس ذنب الناس ، لأنهم ليس باستطاعتهم الحصول على زعماء أفضل !

ـ والآن •• هارتهاوس •• اسمع لهذا وسوف تتعلم شيئا عن متاعبنا ••

قال باوندرباى هذا ثم نفخ زفيره الحاد **واستأنف حديثه متوجها الى ستيفن :**

ـ خبرنى يا ستيفن •• لماذا رفضت الانضمام لهذه النقابة ؟

ـ لم أكن لأقول شيئا عن هذا يا سيدى ، ولكنك سألتنى ولهذا سأجيب • لقد قطعت على نفس عهدا بهذا •

ـ لا يا سيدى • ليس لك •

فصاح باوندرباى :

ـ بالطبع ليس لى ! فهؤلاء الأشخاص لا يفكرون فى مطلقا •• أوه •• لا !

استدار ستيفن الى السيدة باوندرباى قائلا :

ـ لا يا سيدتى ، ليسوا رعاعا ، ولا لصوصا ، أنا أعرف أنهم لم يكونوا رحيمين بى • ولكنهم جميعـــا يعتقدون أنهم يقومون بواجبهم • وهذه هى الحقيقة •أنا أعرفهم جيدا • لقد عشت بينهم حياتى كلها • يجب أن أقول الحقيقة فيما يتعلق بهم • انهم شرفاء وصادقون وطيبون وهم أيضا أناس ظرفاء ومحبوبون •

قهقه باوندرباى وقال وهو يضحك :

ـ ولكنهم لا يحبونك يا ستيفن !

ـ انهم يحبون كل زملائهم العمال يا سيدتى •• وأنا زميل •• عامل ••

واستمر ستيفن فى توجيه كلامه لمسز باوندرباى:

ـ ان الأشياء الطيبة فيهم ـ كالشرف والواجب ـ تسبب لهم أحيانا المتاعب وتدفعهم أحيانا لارتكاب بعض الأخطاء • لكنهم يحبون اتيان الشىء الصحيح والخطأ ليس دائما خطأهم •

تملك الغضب من باوندرباى ، فهذا الموضوع ليس من شئون مسز باوندرباى حتى يوجه لها ستيفن الكلام لهذا قال :

ـ اسمع يا ستيفن • ان هذا السيد ـ وأشار لهارتهاوس ـ عضو فى البرلمان جاء من لندن وهو يريد أن يتقصى الحقائق ، والآن أخبرنى ، أرجوك ما الذى تشكو منه ؟

ـ أنا لا أشكو يا سيدى ، لقد جئت الى هنا لأنك طلبت أن تتحدث الى •

ـ حسنا ، فما الذى يشكوا منه « الأيدى » ؟

ـ سيدى ، أنا لست متحدثا لبقا ، ولكنى أعرف مشاكلهم • اننا نعيش فى مدينة غنية جدا •• وفى نفس الوقت هى مدينة فقيرة جدا • آلاف العمال يعملون فى المصانع ، وهم جميعا يؤدون نفس العمل وقد بدأوا حينما كانوا أطفالا صغارا • وهم لا يتوقفون عن العمل حتى يلحقهم الموت • سيدى •• أنظر الى بيوتنا •• انها صغيرة •• مظلمة ومزدحمة • ليس لدينا أمل فى شىء طيب فى حياتنا • فيما عدا الراحة الطويلة التى تأتى فى النهاية ! ••

واستمر ستيفن فى الكلام :

ـ انك تتحدث عنا يا سيدى •• وتكتب عنا ، وتتحدث فى البرلمان باسمنا • وأنت دائما على حق ـ بالطبع ـ ونحن دائما مخطئون ! ان حياتنا عبارة عن « لخبطة » يا سيدى « لخبطة » عظيمة !

فقال باوندرباى :

ـ وكيف •• كيف نصحح هذه اللخبطة ؟

— ليس بامكانى الاجابة على هذا يا سيدى ·
انها مهمة الزعماء ·· هنا وفى البرلمان ·

فصرخ باوندرباى قائلا :

— أعرف ! سوف نقبض على سلاكبريدج وأمثاله ونضعهم فى السجون ·

فهز ستيفن رأسه وقال :

— هذا لن يغير شيئا ، يا سيدى · فاللخبطة هنا ·· كانت موجودة قبل مجىء سلاكبريدج ··

ثم أشار الى ساعة كبيرة معلقة على الحائط وقال :

— انك اذا وضعت هذه الساعة فى السجن ، فان الزمن لن يتوقف يا سيدى !

فنظر باوندرباى بسرعة وحدة الى ستيفن ثم حرك عينيه تجاه الباب · ففهم ستيفن ووضع يده على مقبض الباب ليخرج ، ولكن كان عليه أن يدافع عن شرف من ينتمى اليهم — أولا — فنظر الى السيد هارتهاوس وقال:

— اننى لست رجلا متعلما يا سيدى ولا أعرف

السبيل لانهاء هذه اللخبطة ، ولكنى أعرف الأشياء التى لا يمكن أن تصلحها ، فاستعمال اليد الحديدية لن تصلحها ·· والسلبية التامة لن تصلحها · واذا فرضنا أن أحد الجانبين دائما على حق فان الجانب الآخر سيكون دائما على خطأ ، وهذا أيضا لن يصلحها ·· هناك عالم أسود فارغ بين الجانبين يا سيدى ·· وبقاؤهما متباعدين هكذا لن يصلح هذه « اللخبطة » فنحن رجال ونساء ·· ولسنا أرقاما ميتة أو آلات ·· ان لنا قلوبا وعواطف ·· أمنيات وذكريات و ·· مخاوف ، مثلكم تماما يا سيدى !

ثم فتح — ستيفن الباب ووقف ينتظر · فى الوقت الذى أصبح فيه وجه باوندرباى شديد الحمرة ، ثم قال باوندرباى :

— آه يا بلاكبول ·· انها الملعقة الذهبية ثانية ! أنتم دائما تتشاكون · هذه هى مشكلة حياتكم ، أليس كذلك ؟

فهز ستيفن رأسه وقال :

— اننى لست الا عامل نسيج يا سيدى !

— انك تسبب الكثير من المشاكل ، لدرجة أنه حتى النقابة قد ضجرت منك · لم أكن أبدا أعتقد أن هؤلاء الرعاع يمكن أن يكونوا على صواب فى أى شىء · ولكنى الآن أوافقهم ·· لأنى أنا أيضا ضجرت منك !

فرفع ستيفن عينيه بسرعة فى وجه باوندرباى الذى قال له :

— خذ أجرك فى نهاية الأسبوع ، ثم اذهب الى مكان آخر ·

فقال ستيفن :

— ولكن سيدى ، اذا لم أستطع أن أعمل معك ·· فلن يكون باستطاعتى أن أجد عملا فى أى مكان آخر ·· أنت تعرف هذا يا سيدى !

— وهذه مشكلتك أنت !

فنظر ستيفن الى مسز باوندرباى ·· ولكنها لم تكن تنظر اليه ، فاستدار الى الباب وغادر الغرفة ·· !!

الفصل الرابع عشر

كان الظلام قد بدأ يزحف على المدينة حينما غادر ستيفن منزل باوندرباى · وفى الطريق كانت فى انتظاره مفاجأة ، فى الحقيقة ·· مفاجأتان ·· فقد قابل هذه العجوز الغريبة التى كان قد قابلها منذ أكثر من عام أمام بيت السيد باوندرباى · أما المفاجأة الثانية ·· فهى أن راشيل كانت بصحبة السيدة العجوز!

فقال :

— آه ! راشيل ·· عزيزتى ! وأنت أيضا يا سيدتى ! هل أنت معها ؟

فاجابت السيدة العجوز :

ــ نعم يا سيدى ، بالرغم أننا لم نتقابل الا الآن • كنت أرقب بيت السيد باوندرباى منذ الصباح ، فقد سمعت أنباء عن زواجه وكنت آمل أن أرى زوجته • ولكنها لا تغادر البيت مطلقا ، ثم •• ومن عشر دقائق فقط أخذت أتكلم مع هذه الشابة الطيبة وأخذت تتكلم معى ••

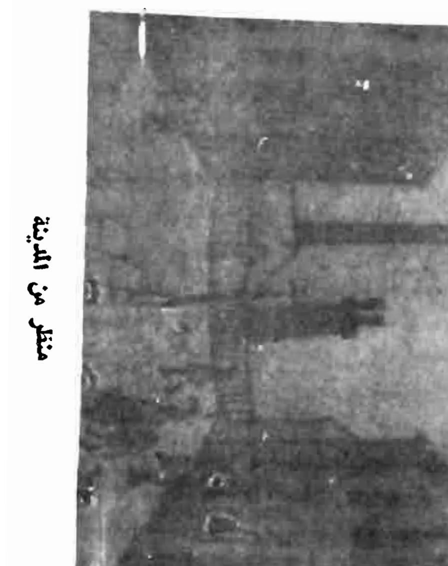
مرة أخرى شعر ستيفن أنه لا يحب هذه المرأة • لم يكن يفهم هذا الشعور ، لأنها كانت تبدو امرأة طيبة وبسيطة • وعلى أى حال فقد **أجابها بطريقته المهذبة المعتادة قائلا :**

ــ حسنا يا سيدتى•• أنا رأيت السيدة باوندرباى، انها شابة وجميلة • عيناها السوداوان مملوءتان بالفكر وطريقتها هادئة •

ــ صغيرة وجميلة ! أجل ، وسعيدة ؟!

فقال ستيفن بتردد :

ــ انى •• أفترض هذا •



منظر من المدينة

ــ تفترض ؟! بل لا بد أن تكون سعيدة ! انها زوجة رئيسكم !

فنظر سيفن الى راشيل نظرة لها مغزى وقال :

ــ **لن يكون رئيسى بعد هذا الأسبوع •**

فتساءلت راشيل بقلق بالغ :

ــ هل تنوى ترك المصنع ؟

ــ يجب على أن أفعل • ان هذا أفضل شىء •• لى وللعمال أيضا • يجب أن أرحل عن كوكتاون وأبحث عن عمل فى أى مكان آخر •

ــ وأين ستذهب يا ستيفن ؟!

ــ لا أدرى ، ولكنى سأجد مكانا ••

كان يكره أن يترك راشيل ولكن هذا سيكون أفضل لها ، فالعمال لن يغضبوا منها ان هو رحل • **وقال :**

ــ انى أشعر أن روحى أخف الآن يا راشيل !

فابتسمت له بحنان وسار ثلاثتهم ، **وسأل ستيفن السيدة قائلا :**

ــ هل ستبقين فى كوكتاون الليلة يا سيدتى ؟!

ــ نعم ، سأقضى الليلة فى الفندق الصغير المجاور للمحطة ثم أعود لبيتى فى الصباح •

ــ تفضلى عندى يا سيدتى لتتناول قدحا من الشاى وستأتى راشيل أيضا • بعد هـــذا سأوصلك للفندق يا سيدتى • فقد يمر وقت طويل قبل أن يتسنى لنا أن نلتقى ثانية يا راشيل •

وافقت المرأتان ، ووصـلوا جميعا الى الشـارع الضيق حيث يعيش ستيفن الذى نظر بخوف الى أعلى ، فوجد نافذته ما زالت مفتوحة كما تركها فى الصباح • ولم يكن ثمة أحد • فقد فرت زوجته منذ شهور مضت ، وكان على ستيفن أن يشترى أثاثا جديدا للبيت • انه لا يعلم أين ذهبت ••

أشعل ستيفن المصباح ثم أخذ يعد الشاى بينما كانت راشيل تقطع بعض الخبز والزبد • استمتعت السيدة العجوز بالعشاء وبدت عليها السعادة•• **وسألها ستيفن :**

– اننى لم أسألك قط عن اسمك يا سيدتى ؟

– اسمى مسز « بيجلر » . وقد مات زوجى منذ سنتين . كان رجلا طيبا جدا .

– انى آسف يا سيدتى . هل لديك أبناء ؟

فارتعش القدح فى يد مسز بيجلر **واجابت متلعثمة:**

– لا .. لم يعد لى أبناء ، لم يعد لى !

فهمست راشيل لستيفن قائلة :

– مات يا ستيفن !

فقال ستيفن بحزن :

– أعتذر يا سيدتى لتوجيهى هذا السؤال .. أننى ألوم نفسى لأنى ..

فقالت السيدة العجوز :

– كان لى ولد .. كان يعمل بجد واجتهاد ، ولكننى لا أحب أن أتكلم عنه لأنه .. لقد فقدته !

فى اللحظة التالية سمع الجميع ضوضاء على درجات السلم ، فذهب ستيفن وفتح الباب فوجد المرأة التى تملك المتجر الذى يقع أسفل غرفته .. فكلمها . وسمع الجميع – راشيل ومسز بيجلر – المرأة وهى تنطق باسم « باوندرباى » . **ففزعت مسز بيجلر وانخفضت واقفة وهى تقول :**

– أوه ، خبئونى .. لا تدعوه يرانى .. أرجوكم !!

فتساءل ستيفن فى دهشة :

– ماذا بك يا مسز بيجلر ، انه ليس السيد باوندرباى ، بل السيدة زوجته ولا أعتقد أنك تخافين منها . أليس كذلك ؟ منذ ساعة كنت تظنين أنها سيدة رائعة !

فقالت مسز بيجلر :

– هل هى السيدة .. أ أنت واثق ؟!

– تمام الثقة !

– اذن .. سوف أقف هناك فى الركن .. وأرجوك ألا تتحدث الى .

أخذ ستيفن المصباح ونزل الى أسفل ، ثم عاد بصحبته لويزا ثم دخل « الجرو » فى اثرهما : كانت هذه أول مرة تزور فيها لويزا بيت أحد العمال فى كوكتاون . كانت تعرف الكثير من الحقائق الجافة عن هؤلاء الناس وعن حياتهم ، كانت تعرفهم كما تعرف .. الحشرات التى درستها فى كتب العلوم ، انهم يبنون أعشاشا ويعملون ، وهذه الغرفة .. كانت أحد أعشاشهم !

أخذت لويزا تجيل البصر فى الغرفة للحظات ولاحظت قطع الأثاث القليلة المتناثرة فيها ورأت أيضا بعض الكتب و .. المرآتين . وخمنت لويزا أن المرأة الصغيرة ليست زوجة ستيفن . فى هذا الصباح كان ستيفن يتوجه بحديثه الى مسز باوندرباى **والآن وبنفس الطريقة توجهت مسز باوندرباى بحديثها الى راشيل :**

– لقد جئت لأساعدكم ، اذا سمحتم لى ، هل تعرفين ماذا حدث ؟ هل أخبرك ؟

– أخبرنى بأنه سيترك العمل فى المصنع .

– وعندما يترك العمل فى مصنع زوجى .. أن يستطيع أن يعمل فى أى مكان آخر فى كوكتاون . هل هذا صحيح ؟

– أجل ، أيتها السيدة الشابة ، فالكل قد وضعوه فى القائمة السوداء ..

فقاطعتها لويزا قائلة :

– ان أصدقاءه العمال سيرفضون العمل معه لأنه فض الانضمام الى نقابتهم ، ولنفس هذا السبب لن يقبل أى صاحب عمل الحاقه بمصنعه . قولى لى .. هل نعهد لك بألا يلتحق بالنقابة ؟

فاجهشت راشيل بالبكاء وقالت من خلال دموعها:

– لم أكن أود هذا ، آه يا رجلى المسكين . كنت فقط أود أن ينأى بنفسه عن المشاكل .. من أجله هو لم أكن أبدا أعتقد أنه سيفقد وظيفته . والآن .. الآن هو يفضل الموت على أن يحنث بوعده .

فأخذ ستيفن يدها فى يديه بحنان **وقال لها :**

– اننى أحمل لك حبا وتقديرا عظيمين يا راشيل ،

ليلة الخميس . يغادر غرفته قبل الخامسة صباحا ..
كانت الطرقات خالية تماما .

وبعد ساعتين ألقى نظرة للخلف من فوق تل .
كانت السماء تشرق ساطعة فوق المدينة ، وكانت الأجراس تدق ايذانا ببدء العمل والدخان الأسود بدأ يتصاعد للسماء ..

وأحس ستيفن وكأنه صبى صغير وسمع صوت تغريد الطيور عاليا حوله .. كأنه رسالة غرام من راشيل .. !

الفصل الخامس عشر

يمتلك السيد هارتهاوس حصانا يركبه عندما يكون متوجها لحضور اجتماع ما ، كما أنه أحيانا يكون عليه أن يسافر الى قرى تبعد عدة أميال . ومن الجدير بالذكر أن أعماله فى المدينة لا تستهلك الكثير من وقته . فهو يلقى بعض الخطب والمحاضرات ، وهو رجل محبوب . أما أفضل أصدقائه فهم آل باوندرباى .. وأفضلهم على الأطلاق هى .. مسز « باوندرباى » !

كانت لويزا معجبة ببعض أفكاره البوهيمية . كانت تذكر دائما قوله : « ان ما قدر له أن يكون ..

حتما سيكون » فهذا القول كان يتفق بصورة مع بعض معتقداتها . ولكن السيد هارتهاوس كان يعتقد أن كل الأشياء عديمة الأهمية .. فارغة . ولويزا لا توافق على هذا الرأى على اطلاقه . ولكن هذا الرأى لم يكن جديدا عليها بالتأكيد ! وهو رأى غير ضار أيضا . كانت لويزا تستمتع بالحديث معه .

لاحظ هارتهاوس تغيرا طفيفا فيها وتذكر كل ما قال له أبوها . فبدأ يفهمها .. ببطء .. وبدأ يفهم أسلوبها . بالطبع .. هو لم يتسنى له أبدا أن يعرف مدى عمق وقدرة عقلها ، فعقله كان ضيقا جدا على هذا . وقد اعتاد أن ينظر اليها ويقول فى نفسه :

— « ان وجهها يصبح جميلا حقا حين ترى «الجرو» . لكم أتمنى أن يصبح وجهها بهذا الجمال من أجلى » !

كان السيد باوندرباى قد اشترى بيتا فى الريف ، فقد أعجبته الى حد ما فكرة أن يكون عنده بيت فى المدينة وبيت فى الريف .. كان بيته الريفى بيتا كبيرا يبعد خمسة عشر ميلا من كوكتاون .. وكان هناك خط حديدى

صغير غير بعيد عن البيت والقطارات تمر كثيرا قادمة من أو ذاهبة الى كوكتاون .

وكانت للبيت حديقته الخاصة .. كانت هناك أشجار كثيرة ومقاعد مريحة فى الظل الرطيب فى اتجاه كوكتاون ، وكانت تلال الفحم القديمة تترك علامات سوداء على الطريق ، كانت الأعشاب تنمو حول المبانى الخالية وتكاد أن تخفيها، كما كانت الأعشاب والحشائش تغطى بعض قمم التلال القديمة . كان المكان يبدو خطرا خاصة فى الليل . ولكن البلدة كانت تبدو منتعشة وخضراء فدخان كوكتاون كان بعيدا .

أحبت لويزا المكان، ومكثت هناك معظم فترات هذا الصيف الحار . بينما كان يذهب السيد باوندرباى الى هناك فقط أثناء الليل أو فى أيام الآحاد . وهو لا يمتطى الخيل فى معظم الأحيان ولكن كان هناك اسطبل لدسته من الخيل وقد دعا السيد هارتهاوس للاقامة فى هذا البيت الريفى . فقد قال له السيد باوندرباى :

— لن تحتاج لأن تدفع أجر اسطبل فى كوكتاون ..

احتفظ بحصانك هنا ويمكنك أن تبقى أنت أيضا ٠٠ اذا كنت تحب هذا ٠

في يوم من أيام الصيف الحارة ٠٠ على مقعد في الحديقة ٠٠ تحت الظل الرطيب ٠٠ والسيد هارتهاوس يحاول أن يجعل وجه لويزا يبتسم من أجله ٠٠ جلس الى جوارها عصر هذا اليوم **وقال :**

ـ آه مسز باوندرباى ، انى أود أن أتحدث اليك في موضوع يخص أخاك ، صديقى الشاب توم ٠٠

وفي الحال توردت خدود لويزا فقال هارتهاوس في نفسه : « رائعة الجمال حقا » ٠٠

ثم استأنف حديثه قائلا :

ـ سامحينى يا مسز باوندرباى ، ان النظرة التى اطلت من عينيك لتثير الغرور في نفس توم ، لم أكن أستطيع تجنب ملاحظتها ، كما أنى معجب بها ٠٠

ـ انني أنتظر يا سيد هارتهاوس ، ماذا تحب أن تقول ٠٠ ...ا يخص توم ؟

ـ أنت شديدة معى ، وأنا أستحق هذا ! فأنا كلب عديم الأهمية ، أعرف هذا ٠٠ لكننى لست منافقا ٠٠ انني مهتم بأخيك !

ـ هل هناك ـ حقا ـ شيء يهمك في الدنيا يا سيد هارتهاوس ؟

ـ فيما يخص توم ٠٠ نعم ٠ لقد فعلت الكثير من أجله ٠٠ بل ان حياتك كلها تدور حوله ٠٠

فتحركت لويزا فجأة على مقعدها ٠٠ واستطرد هارتهاوس :

ـ ولكن سامحينى ـ ثانية ٠٠ فأنا مهتم به من أجله هو ٠٠٠

ثم ابتسم وقال :

ـ ليس بذات أهمية اذا ما كان شابا ما عديم التفكير ٠٠ جاحدا أو ٠٠ فظا بعض الشيء أو اذا ٠٠ أنفق كثيرا ، حسنا ٠٠ هل توم له هذه الخصال ؟

ـ أجل !

ـ وهل يقامر ؟

ـ أعتقد هذا ٠٠

وبعد لحظات من الصمت عادت لويزا وقالت :

ـ أجل ٠٠ انى أعرف انه يقامر ٠٠

ـ وبالطبع ٠٠ يخسر ؟

ـ أجل ٠

ـ ان كل من يقامر يخسر بعض المال ! هل لى أن أسأل ٠٠ هل تمدينه أحيانا بالمال الذى يقامر به ؟ ان هذا ليس من شأنى،أعرف ولكنى أعتقد أن توم ربما يعانى بعض المتاعب ، وأحب أن أساعده اذا كان هذا ضروريا ٠٠ ومن أجله ٠٠ طبعا ٠٠

لم تقل لويزا شيئا **فاستطرد هارتهاوس في حديثه :**

ـ ان توم لا يتمتع بمزايا كثيرة ، ربما لم تعده أفكار والده المحترمة لمثل هذا ٠٠ العالم القاسى ٠٠ والسيد باوندرباى رجل طيب وقوى ـ هذه حقيقة ـ ولكنه ليس بالشخص الذى يلجأ اليه توم عندما يقع في المتاعب ٠

ـ هذا صحيح ٠٠ صحيح تماما

ـ حسنا ، اذن ـ مسز باوندرباى ـ انني مستعد لتقديم المساعدة ٠ ان لى بعض الخبرة في مثل تلك الأمور ، واذا أخبرتنى الحقيقة ف ٠٠

ولكن لويزا قاطعته :

ـ حاول أن تفهمنى يا سيد هارتهاوس ، أنا لا أشكو شيئا ، كما ترى أنى غير آسفة على أى شيء فعلته ٠٠٠

فقال هارتهاوس في نفسه : « مملوءة شجاعة أيضا ! »

بينما استمرت مسز باوندرباى في حديثها :

ـ ان أخى اقترض منى بعض المال منذ عام أو يزيد ٠٠ بعت بعض المجوهرات ٠٠

توقفت لويزا عن الكلام ونظرت الى السيد هارتهاوس ٠ لقد باعت بعض المجوهرات التى اشتراها لها زوجها ٠ هذه هى الحقيقة ٠٠ يمكن حتى للانسان

الغبى ان يخمنها ، وهارتهاوس لم يكن بالانسان الغبى ·

ثم اكملت لويزا حديثها :

ـ منذ هذا التاريخ أعطيت أخى الكثير من المال · ومنذ أسبوعين طلب منى مائتى جنيه ، ولم يكن عندى هذا المبلغ · وانى لقلقة جدا عليه يا سيد هارتهاوس . ولكنى لم أخبر أحدا سواك بهذا السر ·

فقال هارتهاوس بهدوء :

ـ ان توم لم يكن حكيما ، كل الرجال تأتى عليهم فترات يفقدون فيها الحكمة فى تصرفاتهم ، وأنا لا ألومه لهذا ، ولكنه ارتكب ذنبا آخر ·· ذنبا أخطر · ولا يمكننى أن أسامحه عليه ·

ـ لماذا ؟ ماذا فعل ؟ أخبرنى أرجوك !

ـ لقد كنت أمينة معى يا مسز باوندرباى ، ولهذا سأكون أمينا معك ·· اننى لا أستطيع أن أسامح توم على سلوكه الفظ معك · يجب عليه أن يكون رقيقا وعطوفا معك فى كل فعل أو قول أو حتى نظرة تصدر منه على مدى عمره كله فأنت أفضل أصدقائه وحبك

ورعايتك له يفوقان الوصف · ولكن ماذا أعطاك ·· أو حتى عرض أن يقدم لك ؟ ·· لا شىء ! ·· على ما اعتقد ·· اللهم الا كلمات قاسية وأسلوبا قبيحا ·

بعد هذا الكلام بدت أشجار الحديقة وكأنها طافية على سطح من الدموع أمام لويزا ، كانت عيناها تترقرقان بالدمع من أجل شىء ما دفين فى أعماقها · ولكنها لم تهبها بعض السلوى ·

واستكمل هارتهاوس حديثه قائلا :

ـ اننى شخص بوهيمى بما فيه الكفاية يا مسز باوندرباى · ولم أحاول قط أن أكون طيبا أو شاكرا ولهذا فأنا أعرف تماما أى شرك وقع فيه توم · وسأحاول أن أساعده ليتخلص منه ، سوف أحاول أن أمنعه من المغامرة ·

قال هذا ثم نظر الى أعلى فوجد شخصا بالقرب من البيت **فاشار اليه وقال :**

ـ لا بد أنه أخوك ، فلنذهب لنقابله ·

ساعدها على النهوض وتابطت هى ذراعه . كان توم يضرب بعض الحشائش بعصا ، كانت فى يده **عندما رآهما صاح :**

ـ أهلا ! لم أكن أتوقع وجودكما هنا ·

فقال هارتهاوس :

ـ آه ! كنت تتوقع احدى شابات كوكتاون الجميلات ـ على ما أعتقد ـ وبالطبع خيبنا رجاءك ·

فرد توم :

ـ انى أرجو أن تقع فى حبى سيدة غنية جدا ·· حتى لو كانت عجوزا قبيحة ·· فلن أفرط فيها أبدا !

ـ انك دائما تفكر فى النقود يا توم ·

ـ ان كل انسان يفكر فيها ·· أختى أيضا ·· اليس كذلك يا لوو ؟

فردت لويزا قائلة :

ـ لا يا توم ، ليس دائما ·

فقال هارتهاوس :

ـ يبدو أن توم غير سعيد اليوم ويجب علينا الا نثير قلقه ·

ـ أنا أعرف كيف تفكر أختى يا سيد هارتهاوس ، وهى تعرف أيضا ·

ـ لا تصدقيه يا مسز باوندرباى ، فهو وان كان غير مهذب ·· الا ان بامكانى أن أخبرك بفكرته عنك !

فقال توم :

ـ اننى أمتدحها ، عندما لا تهتم بالنقود · وسأفعل هذا ثانية اذا كان لدى سبب وجيه · ولكن هذا لا يهمك يا سيد هارتهاوس بالاضافة الى أنى تعبت منه أيضا ·

وصلوا الى البيت فدخلت لويزا بينما وضع السيد هارتهاوس يده على كتف توم **وقال له :**

ـ توم ·· دعنا نتمشى قليلا فأنا أريد أن أتحدث معك !

وجلسا على سور واطىء فى نهاية الحديقة ·

ـ والآن يا توم ·· ما المشكلة ؟

— أوه يا سيد هارتهاوس ! انى مفلس كما أنى واقع فى مشكلة .

— يا صديقى العزيز .. أنا أيضا مفلس .

— ولكنك لست متورطا فى أية متاعب ، ان أختى كان من الممكن لها أن تساعدنى .. لكنها لم تفعل .

— انك تنتظر منها الكثير . لقد أعطتك الكثير من المال ! فكم تحتاج الآن ؟

— فات الآوان يا سيد هارتهاوس . لم أعد فى حاجة الى المال الآن . كان يمكن للوو أن تحصل عليه من أجلى من زوجها باوندرباى العجوز . لقد تزوجته من أجلى ، ألم تفعل ؟ ولكنها رفضت أن تسأله شيئا من أجلى ، ولو كانت لطيفة معه .. لأعطاها كل ما تطلب ، ولكنها ليست لطيفة معه .. ولو حتى من أجلى !

كانت هناك بحيرة صغيرة بالقرب منهما فى الحديقة فأحس هارتهاوس فجأة بأنه يود أن يقذف بهذا الجرو فيها . ولكنه احتفظ ببرود أعصابه وقال :

— حسنا يا توم .. دعنى أحاول أن أكون المصرف الخاص بك

— المصرف الخاص بى ؟!

وانقلبت سحنة توم وشحب وجهه وقال :

— أرجوك .. لا تتكلم عن المصارف والمصرفيين !

فتعجب السيد هارتهاوس ، لماذا يبدو على «الجرو» التعب والمرض هكذا ؟! ثم قال :

— اسمع يا توم .. عندما تقع فى أية متاعب . دعنى أعرف قبل أن تتفاقم . وسأحاول أن أدلك على طريق سهل للخروج منها .

— أوه ، أشكرك يا سيد هارتهاوس انك صديق حقيقى ، وكم كنت أتمنى لو أنى عرفتك منذ زمن .

— ولكن .. يجب أن تفعل شيئا من أجلى يا توم كن أكثر عطفا مع أختك .. دعها تشعر بوضوح أنك تحبها .

— سوف أفعل ، يا سيد هارتهاوس ، وسوف أبدأ فى الحال .. هذا المساء .

وبر توم بوعده فقد بادر أخته فى مساء ذلك اليوم وقبل العشاء ...

— أرجوك أن تسامحينى يا « لوو » انك تعلمين أنى أحبك ولم أكن أريد أن أبدو غير عطوف !

بعد هذا أصبحت تمنح ابتسامتها الجميلة للسيد هارتهاوس أيضا . فقال جيم فى نفسه :

« هذا طيب .. طيب جدا . ان ما قدر له أن يكون حتما سيكون » !!

الفصل السادس عشر

لم يكن هارتهاوس أقل سعادة فى صباح اليوم التالى ، فقد أشرقت ابتسامة لويزا الجميلة من أجله ، وكان لا يفتأ يردد بينه وبين نفسه : « ان عينيها أشبه بقطعتين براقتين من الماس » !

وفى مساء أحد الأيام ، فى الساعة السادسة ، عاد هارتهاوس من اجتماع جماهيرى ، وبينما هو يضع حصانه فى الاسطبل .. اذا بالسيد باوندرباى يظهر فجأة ويصيح :

— هارتهاوس ! هل سمعت الأنباء ؟

– أية أنباء يا سيدى ؟

– لقد سرق مصرفى !

– مستحيل !

– بل واقع ، لقد سرق الليلة الماضية – يا سيدى

– بواسطة مفتاح مصطنع .

– وكم يبلغ المبلغ المسروق ؟

– ان هذا لا يهم يا رجل ! انه .. ليس كبيرا فى الحقيقة . ولكن .. كان من الممكن أن يكون كبيرا جدا .

ولكن هارتهاوس أعاد السؤال فى اصرار :

– كم ؟

– حسنا ، ليس أكثر من مائة وخمسين جنيها ، ولكن الكم ليس مهما على الاطلاق ، فالشىء المهم هو .. الواقع .. ان مصرفى قد سرق !

– أجل .. أجل بالطبع ، ولكنى سعيد لأن المبلغ ليس كبيرا .

فقال باوندرباى بضيق :

– أشكرك ! ربما أصبح المبلغ المسروق عشرين ألفا لو أن اللص لم يضطرب . اننى المصرفى الأول فى كوكتاون .. يا سيدى !

وهنا وصلت لويزا وبصحبتها مسز سبارسيت وبيتزر **فاستأنف باوندرباى كلامه :**

– ها هى ابنة جراد جريند .. لقد سقطت مغشيا عليها عندما أخبرتها .

كان وجه لويزا يبدو شديد الشحوب ، فذهب اليها جيمس هارتهاوس ومد لها ذراعه لتتأبطه بينما أخذ باوندرباى – باستياء – ذراع مسز سبارسيت ومشى الجميع الى البيت بينما **قال هارتهاوس :**

– مستر باوندرباى .. كيف حدث هذا الشىء المروع ؟!

فصاح باوندرباى بغيظ :

– كنت أحاول أن أخبرك ، ولكنك كنت مهتما

فقط بكمية المال المسروق ! حسنا ، أمس مساء ، أغلقنا كل شىء كالمعتاد . كان هناك الكثير من المال فى الغرفة المحصنة ، وكان لدى توم الصغير خزانة حديدية صغيرة فى مكتبه ، وهذه الخزانة كانت تحتوى على مائة وخمسين جنيها ...

فقاطعه بيتزر قائلا :

– بل مائة وأربعة وخمسين جنيها وسبعة شلنات يا سيدى

فكاد باوندرباى أن ينفجر وصرخ فى وجه بيتزر :

– لا تقاطعنى يا بيتزر ! لقد سرقت لأنك كنت تغط فى نوم عميق ! المهم ، أغلق توم الصغير خزانته على مبلغ مائة وخمسين جنيها ثم راح بيتزر فى النوم على سريره الموضوع أمام الغرفة المحصنة . وفى الليل جاء اللص – أو اللصوص – وكسروا الخزانة وسرقوا المال . ثم أثار شىء ما اضطرابهم ففروا وتركوا المكان عن طريق الباب الرئيسى الذى فتحوه بمفتاح مصطنع وقد وجد المفتاح ملقى فى الشارع هذا الصباح . ولكن

شيئا ما لم يقلق هذا الشخص .. بيتزر ! حتى السابعة صباحا ! عندما رأى باب خزانة توم المفتوح . كان القفل مكسورا والخزانة خاوية !

تلفت السيد هارتهاوس ثم تساءل :

– وأين توم الآن ؟

فأجابه السيد باوندرباى :

– كان يساعد الشرطة وهو الآن ينهى عمله اليومى فى المصرف .

– وهل لدى الشرطة أية أفكار .. عن اللصوص؟

فانفجر باوندرباى صائحا :

– بالطبع يا سيدى ! فعندما يسرق جوزيه باوندرباى ، لا بد أن تكون لديهم أفكار ! وهى سر فى الوقت الراهن ، ولهذا لا تتكلم عنها ، انه .. واحد من « الأيدى » .

فقال هارتهاوس بتكاسل :

– أرجو ألا يكون صديقنا بلاكبول !

ـ بل هو ، كنت قد حذرته من قبل ·· عندما كان يريد انهاء حياته الزوجية · وحذرته ثانية فى الأسبوع الماضى ··

فقالت لويزا فى صوت خافت :

ـ لا يمكن أن يكون بلاكبول !

فصاح باوندرباى :

ـ اننى أعرف هؤلاء الناس ! أعرفهم جيدا ، لقد غادر بلاكبول المدينة ، لقد ذهب ولا أحد يعرف أين هو الآن · تماما مثلما فعلت أمى بى عندما كنت صغيرا · ولكن ·· ماذا فعل قبل أن يرحل ؟

ابتسم باوندرباى ابتسامة صفراء **وقال :**

ـ ان مسز سبارسيت تعرف الاجابة على هذا ، وبيتزر وبعض جيران المصرف ، كلهم يعرفون الاجابة أيضا ·

فتساءل هارتهاوس :

ـ ماذا فعل ؟

ـ أخذ يراقب المصرف ، ليلة بعد ليلة ! لقد مكث بجوار البنك يراقب وينتظر

ـ ان هذه قرينة ضده ·

ـ ولكن بلاكبول ليس اللص الوحيد فقد كانت هناك امرأة عجوز أيضا ، رآها الناس وهى تراقب بيتى ومصرفى ، كانت تقف أمام بيتى عندما جاءنا بلاكبول الأسبوع الماضى ، ثم رحل كلاهما معا ·

وهنا تذكرت لويزا المرأة العجوز التى رأتها فى غرفة بلاكبول ·

وأضاف باوندرباى :

ـ يجب علينا أن نلتزم الهدوء ، ولكننا سنمسك بهم ، لا يمكن أن يفلتوا من جوزيه باوندرباى !

فقال هارتهاوس :

ـ يجب أن يعاقبوا بكل قسوة القانون · فمن يسرقون المصارف يجب أن يتلقوا أقسى العقاب !

تحول باوندرباى الى زوجته وقال لها :

ـ لوو ، ان هـذه المشكلة قـد أرهقت مسز سبارسيت ، اعملى على راحتها هنا ·

فقالت مسز سبارسيت :

ـ شكرا جزيلا سيدى · ولكن لا تؤرق نفسك بشأن راحتى · فان أى شىء سوف يريحنى ·

وهكذا ، بدأت مسز سبارسيت تمارس نظرات الشفقة على السيد باوندرباى وكم كانت سعادتها بهذا وكانت تشاركه لعب الورق ، كما كانا يفعلان عـادة ، وكانت تصنع له مشروبات ساخنة خاصة فى الليل ، كانت فى الواقع تتصرف كأم له ، ولم يكن يبدو على لويزا أنها تلاحظ السيدة مطلقا ·

عاد توم الصغير متأخرا هذا المساء ، كان الكل تقريبا نائمين فيما عدا لويزا التى ما ان سمعت وقع أقدامه على درجات السلم حتى توجهت بهدوء الى مخدعه·

كان توم على وشـك أن ينام عندما لفته لويزا بذراعها ، فتحرك محاولا النهوض **وهو يقول فى فزع :**

ـ من هناك ؟ من ·· ! ما الخبر ؟

فقالت لويزا :

ـ توم العزيز · أليس لديك ما تود أن تخبرنى به ؟

ـ ماذا تقصدين يالو ؟ ·· هل كنت تحلمين ؟

ـ عزيزى توم ، لا تخفى عنى أى شىء ، فلـن يغير أى شىء من حبى لك ·· قل لى الحقيقة !

ـ ماذا تريدين أن تعرفى ؟

احتضنته لويزا بقوة **وقالت له بحنان :**

ـ لن ألومك أبدا ، يا توم · بل سأنقذك ·· أيا كان الثمن · أليس عندك ما تود اخبارى به ؟ ·· فقط قل : « أجل » وسأفهم ··

ـ أنا لا أفهم ما تقصدين يالو · انك فتاة شجاعه وطيبة وتستحقين أن يكون لك أخ أفضل منى ولكن ·· عودى الى فراشك الآن ·· عودى الى فراشك !

ولكنها سألته :

– هل اكتشفت الشرطة شيئا جديدا ؟

– لا ٠٠ فقط ما أخبرك به باوندرباى العجوز

– هل أخبرت أى انســان بأمر زيارتنا لغرفة بلاكبول ؟

– لا ٠ لقد طلبت منى أن أحفظ هذا الأمر سرا ٠٠

– نعم ٠ فلم أكن أتصــور وقتها أن هناك من يخطط لسرقة المصرف ٠٠

فقال توم بسرعة وكأنه ينفى تهمة :

– ولا أنا ، فمن أين لى أن أتصور هذا ؟

– هل يجب أن تخبر أحدا ؟ هل يجب أن أخبر – أنا – أحدا بأمر تلك الزيارة ؟

– لا تسألينى رأيى يالوو ٠٠ ! افعلى ما تشائين فلم تكن الزيارة فكرتى ٠

ثم نهضت لويزا وقالت بصوت حازم :

– توم ٠ هل تعتقد أن بلاكبول سرق المصرف ؟!

– لا أعرف ٠٠ ربما فعل !

– كان يبدو رجلا شريفا ٠٠

– كان سعيدا أن أخذ منك نقودا ، لقد حادثته خارج الغرفة وقلت له أنه محظوظ بحصوله على هذين الجنيهين ٠ هذا كل ما أعرف ٠ ربما كان شخصا طيبا جدا ٠

– أليس عندك شيء آخر تريد اخبارى به ؟

– لا شيء٠٠انك لا تريدين منى أن أكذب عليك٠٠ أليس كذلك ؟

– لا بالطبع ٠٠ لا أريد ذلك ٠

– حسـنا ، أذن عودى الى مخدعك الآن فأنـا متعب ٠٠ تصبحين على خير يالوو ٠٠

بعد ذهابها قام توم بسرعة وأغلق باب حجرته بالمفتاح ثم ألقى بنفسه على سريره وأجهش بالبكاء !!

الفصل السابع عشر

استطاعت مسز سبارسيت أن تحتل مكان لويزا فى منزل السـيد باوندرباى الصيفى ٠ وان كان ذلك لم يسـبب أى قلق للويزا **فقد اعتــادت أن تقول لمسز سبارسيت :**

– ان هذا لايهـم يامسز سـبارسيت ، انك تستمتعين برعاية السيد باوندرباى !

وفى الحقيقة فقد كانت مسز سبارسيت ترعى سيدها باهتمام بالغ فهى تقدم له وجباته وتنظف له

ملابســه ، وعند مغــادرته المنزل تحضر له قبعته ، وقد اعتادت أن تقبل يده وهى تهمس :

– **انك عطوف ياسيدى ! عطوف جدا ٠**

ولكنها – وبعد أن يغادر البيت – كانت تحرك **قبضتها فى اتجاهه وهى تقول بغيظ :**

– **أوه أيها الوغد ، انك تستحق هذه الزوجـة التى لديك ، أنا سعيدة أنها كانت من نصيبك !**

أصبح السـيد باوندرباى ومديرة منزله أكثر قربا من بعضهما – حتى أكثر من ذى قبل – وترتب على هذا أن أصبحت لويزا أكثر قربا مـن السـيد هارتهاوس ٠

وفى صباح أحد الأيـام وفى الســاعة العاشرة تماما حمل بيتزر رسالة من كوكتاون ٠ ان السـيدة جراد جرينـد تحتضر ويجب على لويزا أن تذهب الى ستون لودج فى الحال ٠

كانت قد ذهبت الى بيت أبيها مرتين فقط منذ زواجها ، والسيد جراد جريند يكون عادة فى لندن ، كما أن مسز جراد جريند لا تحب الزيارات ٠ فى هذه

المرة أحست لويزا أن المكان مختلف مما جعلها تشعر ببعض الغيرة فقد كان يملأ المكان مزيد من الحب أكثر مما عرفته فى حياتها كلهـا ‥ لقد كانت كلمات سيسى جوب الحنونة ونظراتها الرقيقة هى التى غيرت « ستون لودج » .

منذ زواجها ‥ لم تتكلم لويزا مع سيسى جوب ولكن مسز جرادجريند ، والأطفال الأصغر من لويزا وتوم كانوا يحبون سيسى حبا جما ، والآن بلغت جين جراد جريند عشرة أو اثنى عشر عاما من العمر وكان لوجهها واسلوبها فى الحياة جمال ورقة يعادلان ما لوجه وأسلوب سيسى .

كان صوت مسز جراد جريند ضعيفا ، وكانت معها رسالة للسيد جراد جريند طلبت من لويزا أن تعطيها له حينما يعود ‥ **وقالت لابنتها فى صوت أضعفه المرض :**

ـ لقد تعلمت الكثير فى حياتك يالويزا وكذلك أخوك ‥ ولكن هناك شيئا فات على أبيك أو نسيه . وقد كنت دائما أفكر فيه ‥

وازداد صوتها ضعفا وهى تقول :

ـ عندما تكون سيسى معى ولكنى لم أستطع أن أتذكر اسمه ‥ ربما استطاع والدك بل يجب عليه ‥ لأجل الله ‥ أن يعرفه ‥

ثم سكت الصوت للأبد ‥ ولم تتكلم مسز جراد جريند ثانية ‥ ماتت فى عصر هذا اليوم قبل أن يعود زوجها .

ومكثت مسز سبارسيت مع عائلة باوندرباى لعدة أسابيع ، وأثناء وجودها معهم كانت تتخيل سلما كبيرا فى نهايته حفرة مظلمة ينتظر فيها السيد هارتهاوس ، بينما لويزا تهبط باستمرار فى اتجاه ‥ حفرة العار ‥

فى احدى الأمسيات الدافئة كانت لويزا والسيد هارتهاوس يجلسان فى الحديقة ، كانا يتناقشان فى موضوع ستيفن بلاكبول الذى مازالت الشرطة تبحث عنه ، وكانت مسز سبارسيت تراقبها من نافذة مخدعها ولاحظت أن وجه السيد هارتهاوس يكاد يلمس شعر

لويزا ، ولم يكن باستطاعة مسز سبارسيت أن تسمع ماذا يدور فى محادثتهما ‥

سألت لويزا جيم قائلة :

ـ ماذا تعتقد فيه ياسيد هارتهاوس ؟

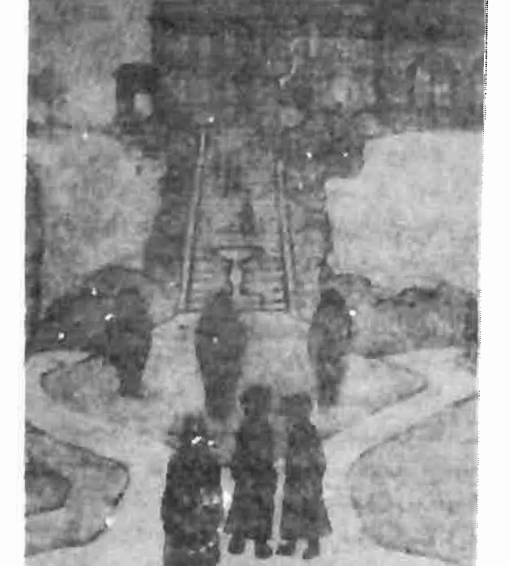
ـ انه يتكلم كثيرا ‥ كثيرا جدا ربما .

ـ لقد بدا لى رجلا شريفا ، ولكنى لا أعرف شيئا عن الرجال ‥ أو النساء .

ـ عزيزتى لويزا .

وبدأ هارتهاوس يخبرها بأن الرجل كان غاضبا جدا وأنه وجه اللوم للسيد باوندرباى لما يحدث من متاعب فى كوكتاون ولهذا ربما فكر بالفعل فى سرقة المصرف ‥ بالاضافة الى أن سرقة المصرف وسيلة سهلة للحصول على المال . وظلت لويزا صامتة لبعض الوقت ثم قالت :

ـ انى أتذكر وجه بلا كبول وطريقته . ولا يمكنى فى الحقيقة أن أوافقك على رأيك . ولكن عندما يتسنى



فى الحديقة

لى أن أوافقك فاننى سأشعر أن عبءاً ما قد انزاح عن قلبى

– ان توم الصغير .. يوافقنى . هل لنا أن نتمشى قليلا ؟

وتمشيا داخل الحديقة .. كانت لويزا تتأبط ذراعه ، لم تكن تعرف أنها تهبط الى أسفل .. تهبط وتهبط وتهبط الى قاع السلم الذى تخيلته مسز سبارسيت والمنى كانت تراقب وتنتظر أن تسقط لويزا فى الحفرة

عادت مسز سبارسيت الى شقتها فوق البنك ولكنها استمرت فى قضاء عطلات نهاية الاسبوع ببيت السيد باوندرباى الريفى . وبمرور أسبوعين كان على السيد باوندرباى أن يسافر فى عمل . وقبل أن يسافر أكد على مسز سبارسيت بألا تتأخر عن قضاء عطلة نهاية الاسبوع ببيته الريفى .

فقالت مسز سبارسيت بسعادة :

– أشكرك ياسيدى .. سوف أذهب بكل سرور .

بالطبع لم تقل شيئا عن قاع السلم ..

غادر السيد باوندرباى كوكتاون فى صباح يوم الجمعة وفى عصر نفس ذلك اليوم دعت مسز سبارسيت توم الابن ليتناول الشاى معها . وعلى هذا وفى الساعة الرابعة تماما عندما أغلق صيارفة المصرف خزاناتهم : هرول توم الى أعلى .. الى شقة مسز سبارسيت .. فاستقبلته مسز سبارسيت مرحبة وهى تقول :

– لقد فكرت أنك ربما تستمتع بوجبة صغيرة ياسيد توم .. خبرنى كيف ترى حال السيد هارتهاوس ؟!

فأجاب توم وهو يأكل بنهم :

– أوه انه بخير حال .. على ما أعتقد ، فقد كان متغيبا عنا الأيام القليلة الماضية .

– اننى معجبة به .. هل سيعود بسرعة ؟

– غدا مساء .. سوف أقابله عند المحطة وسوف نتناول العشاء معا فى المدينة ولن يكون فى البيت فى نهاية هذا الاسبوع .

فقالت مسز سبارسيت بخبث :

– لسوء الحظ .. يجب على أن أبقى هنا أنا أيضا هذا الأسبوع . فهل تتكرم وتحمل اعتذارى للسيدة الرقيقة أختك ؟!

– اذا تذكرت يامسز سبارسيت ، ولكن الأمر فى الحقيقة لا يهم . فلويزا لن تفكر فيك الا اذا رأتك .

بهذه الكلمات الرقيقة ! شكر الجرو مسز سبارسيت على الشاى والطعام ..

وفى مساء السبت ، ارتدت مسز سبارسيت قبعتها ووضعت شالا على كتفها ، وخرجت فى هدوء . وفى محطة القطار شدت الشال فوق قبعتها . كان توم الابن هناك أيضا ولكنه لم يلحظ مسز سبارسيت ، وجاء قطار .. ، ثم قطار آخر ولكن السيد هارتهاوس

لم يصل بعد .. وأخيرا أحس بالتعب من الانتظار .. فغادر المحطة .

وقالت السيدة سبارسيت لنفسها : « ان هارتهاوس قد دبر الأمر ! لقد أراد أن ينفى الأخ فى المدينة .. ولهذا .. آه ، لويزا .. انها الآن فى قاع السلم أو .. فى الحفرة ! لابد أن هارتهاوس معها الآن » .

استقلت مسز سبارسيت القطار التالى الذى يغادر المحطة وبعد نصف ساعة عبرت حقلا فى اتجاهها للحديقة . كانت نوافذ البيت مفتوحة . فمشت مسز سبارسيت فى هدوء وحذر حول الحديقة تراقب وتتسمع ولكنها لم تغادر منطقة الحشائش .

أخيرا سمعت أصواتا خافتة..صوته وصوتها ؟.. لقد دبرا خطة لابعاد الأخ عن البيت ! وهما هناك الآن .. كلاها ! يجلسان على جذع شجرة ساقطة ! وبهدوء شديد اقتربت مسز سبارسيت ولكن ما هذه الضوضاء ؟ حصان .. حصان هارتهاوس ! لم يكن

متجها للبيت بل كان يركبه متجها اليهـــا ! فاخذت مسز سبارسيت تتسمع الأصوات ·

كان هارتهاوس يقول :

ـ ولكنك وحدك الآن يا أعز انسانة ماذا يمكنني أن أفعل ؟

فاجبت لويزا :

ـ ليس هنا ··

فلفها هارتهاوس بذراعه وقال لها :

ـ أين اذن يا حبيبتي ·

فقالت مسز سبارسيت في نفسها : « آه ·· حبيبتي ! انك لا تدرى بمن يراقبك ! » ·

قالت لويزا :

ـ ليس هنا ·· يجب أن تدعني وحدى هنا !

ـ عزيزتي لويزا ·· يجب أن نلتقى فى مكان ما·

لقد امتطيت جوادى مسافة خمسين ميلا من أجلك ·· ولا أستطيع أن أتركك الآن ·

فقالت لويزا وهى تحاول ان تنهض واقفة :

ـ بل يجب عليك ··

ولكنه شدها بذراعه وقال لها :

ـ انني أحبك يا لويزا ·· ولا شيئا آخر يهم ؟

كان صوته يخفت أحيانا حتى يصبح همسا ·· وكان يعلو أحيانا ·

ـ لا يمكنك البقاء هنا بدون صديق ·· لن أذهب الا اذا أتيت معى !

أجابته لويزا ولكن صوتها كان خافتـــا جدا ، وعندما سمعت مسز سبارسيت كلمة « الليلة » علمت أنهما يدبران للقـاء الليلة ، كان هذا كل شيء بعدها اطلق هارتهاوس العنـان لجواده ولكـــن ليس الى الاسطبل ·

تتبعت مسز سبارسيت لويزا الى البيت ، كانت السماء قد بدأت تمطر ثم ازداد سقوط المطر · فوقفت

مسز سبارسيت تحت شـــجرة تفكر فيما عليها أن تفعله ·

فجأة ظهرت لويزا ثانية ·· كانت ترتدى معطفا ! فقالت مسز سبارسيت فى نفسها : « انهـا ستهرب معه ·· أوه ياعزيزتي ·· لقد سقطت فى الحفرة » ·

أسرعت لويزا الى محطة القطار وتبعتهـــا مسز سبارسيت خلال الحشائش المبتلة ، كان الظلام مخيما والمطر يتساقط بقوة وغزارة · توقفت لويزا مرة ·· فتوقفت مسز سبارسيت أيضـــا ·· ثم تابعت لويزا المسير ، فحركت مسز سبارسيت قبضتها فى الفضاء وتبعتها ·

وفى المحطة غطت مسز سبارسيت قبعتها بشالها المبلل وســافرت السيدتان الى كوكتـــاون فى نفس القطار ·· وطوال الرحلة كانت مسز سبارسيت تحدث نفسها قائلة : « يجب أن اتبعهـــا · لأعـرف أين سيلتقيان ؟ » ·

كانت كوكتاون غارقة فى فيضان من الامطار ،

اندفع حوالى خمسين أو ستين من الركاب من المحطة الى خط العربات فى الخـارج · ولكن لويزا لم تكن هناك ·· « انها مازالت فى القطار ·· انها ذاهبة للمحطة التالية وسوف تقابله هنـاك » ، خطرت هذه الأفكار لعقل مسز ســـبارسيت فجرت عائدة للقطار وأخذت تعـدو ولكنهـــا لم تلحق بالقطـار فغضبت وشعرت بخيبة الأمل ·· ولم يكن فى امكانها أكثر من أن تنفجر فى البكاء وهى تندب حظهـــا قائلة : « لقد فقدتها ! » ·

كان السيد جراد جريند فى بيته فى نهاية هذا الاسبوع ، كان ينظر الى العاصفة من خـــلال النافذة حينما انفتح باب الحجرة فاســـتدار بسرعة ليجد ·· لويزا والتى باردته قائلة وهى تخلع قبعتها ·

ـ أبى ·· يجب أن أتحدث اليك !

ـ لويزا ! ماذا حدث ؟ انك مبتلة جدا · هل مشيت فى هذا الجو العاصف ؟

ـ أجـل !

لم يبد عليها أنها لاحظت ملابسها المبتلة ، فقد تركت معطفها يسقط على الأرض ٠٠ كانت شاحبة وترتعش ، فأحس أبوها بالخوف عليها ٠ ووضعت يدها الباردة على ذراعه وقالت :

ـ أبى لقد ربيتنى ودربتنى منذ صغرى ٠٠

ـ أجل يالويزا ٠

ـ انك لم تمنحنى شيئا يجعل لحياتى مذاقا طيبا ٠ أين الحب الذى يجب أن يملأ قلبى ؟ ان قلبى عبارة عن شىء فارغ ٠٠ هل تذكر آخر مرة تحدثنا فيها فى هذه الحجرة ؟

لم يكن السيد جراد جريند مستعدا على الاطلاق لسماع هذه الكلمات التى فاجأته بها ابنته فقال بدون تفكير :

ـ أجل يالويزا ٠

ـ كنت أتمنى ان تساعدنى وقتها ٠ أنا لا ألومك الآن ، يا أبى ، لا ألومك على أى شىء ٠ فليس فى امكانك أن تعلم الآخرين أشياء أنت نفسك لاتعرفها ٠

ولكن آه لو أنك علمتنى الأشياء الصحيحة أو ٠٠ لو أنك لم تعلمنى شيئا ٠٠ لكانت حياتى أفضل ولكنت امرأة أكثر سعادة اليوم !

بعد هذه الكلمات ، سقطت رأس السيد جراد جريند على صدره وقال فى حنان :

ـ يا طفلتى المسكينة ، لم أكن أعلم أبدا أنك غير سعيدة ٠

ـ أما أنا فكنت دائما أعرف ، لقد تعلمت كل الأشياء الخاطئة يا أبى ٠٠ كان الشىء الوحيد الذى يريحنى هو ٠٠ فكرتى بأن حياة الانسان قصيرة جدا ٠

ـ ولكنك مازلت صغيرة يالويزا !

ـ أجل يا أبى ، فقد خططت ودبرت أمر زواجى ٠٠ اقترحت على زوجى ، وأنا وافقت عليه لعلمى أن لاشىء يستحق المجادلة ٠ كنت أعرف أنى لا أحبه ٠٠ وكنت أنت أيضا تعرف ٠٠ وهو يعرف أنى لا أحبه ٠ تزوجته لأنى كنت آمل أن أستطيع مساعدة توم ٠٠ توم الذى قاسمنى حياتى التعيسة ٠ كان الشخص

الوحيد الذى أحبه وأشعر بالشفقة عليه ٠٠ كان السبب وكان المهرب ٠ ان هذا لايهم الآن ولكنه قد يساعدك لتشعر ببعض الشفقة على توم يا أبى !

فاحتضن السيد جراد جرينة ابنته وقال لها :

ـ ماذا يمكننى أن أفعل الآن يا ابنتى ٠٠ أطلبى منى أي شىء تتمنينه ٠٠

ـ اننى أحتاج الى مساعدتك يا أبى ٠ لقد اتخذت صديقا ٠٠ انه يختلف عن أى رجل آخر عرفته فى حياتى ٠ انه طيب القلب وله خبرة بالحياة ٠ وهو لا يسعى لأن يصبح شخصا هاما ٠ كما أنه يشاركنى فى بعض أفكارى ويظهر اهتماما بى يا أبى ٠٠

فارتعش السيد جراد جرنيد وهو يقول فى دهشة :

ـ اهتماما بك يا لويزا ؟!

ـ انه يفهمنى يا أبى ٠٠ يمكنه أن يقرأ أفكارى ، وقد استطاع أن يفهم بسرعة كل الحقائق المتعلقة بزواجى ٠٠ اننى لم أرتكب أى خطأ يا أبى ، ربما كنت

تتساءل عما اذا كنت أحبه أم لا ؟ حسنا ، انى لا أعرف ولكن يمكننى أن أقول لك ببساطة أنى ربما أحبه ٠٠

سحبت ذراعيها من بين كتفى أبيها ثم ٠٠ وبصعوبة بالغة أنهت ما كانت تود أن تقوله :

ـ هذا المساء أخبرنى أنه يحبنى ، وهو يتوقع أن أذهب لمقابلة ٠٠ وانى لا أعتقد أنى آسفة أو خجلى ٠٠ أنا أعرف شيئا واحدا ٠٠ هو أن تعليمك لى لن ينقذنى يا أبى ٠ يجب أن تحاول انقاذى بطريقة أخرى ٠٠

وكادت تسقط لولا أن أمسكها أبوها فصرخت صرخة مرعبة وقالت :

ـ دعنى أسقط !

فأرقدها أبوها على الأرض عند قدميه ٠٠ حيث شاهد كل كبريائه وكل حقائق أفكاره تتمرغ على الأرض !

الفصل الثامن عشر

استيقظت لويزا فى الصباح التالى فوجدت نفسها فى حجرتها القديمة فى « ستون لودج » .. كانت سيسى والخادمة قد حملتاها الى سريرها ثم مكثت سيسى بالقرب منها جزءا من الليل .

وفى الصباح .. دخلت جين – أخت لويزا الصغيرة – وأخذت تتحدث مع أختها **فسألتها قائلة :**

– هل أعجبتك حجرتك ؟ ان سيسى حرصت على أن تحفظها نظيفة ومرتبة منذ أن غادرت البيت .

كانت جين – حسب اعتقاد لويزا – بنتا رقيقة

وعطوفة ، وفى أثناء حديث الأختين دخل السيد جراد جريند فانسحبت جين فى هدوء .. ثم .. خيم الصمت والحزن على المكان . كان السيد جراد جريند يلوم نفسه على ماحدث للويزا من متاعب . وقال أنه كان دائما يعتقد ان أفكاره عن التربية أفكار صحيحة .

وبعد لحظات الصمت قال للويزا :

– ابنتى العزيزة ، هل يمكن لانسان أن يصبح حكيما بطريقتين مختلفتين ؟ بعض الناس يقولون هذا .. انهم يقولون أن بمقدور القلب أن يكون حكيما .. كالعقل تماما . لم أصدق هذا القول أبدا ولكن .. ربما كنت مخطئا .

كان شعر لويزا يفترش الوسادة فمد أبوها يدا حانية ومسح على شعرها **واستأنف حديثه :**

– اننى غالبا ما أكون متغيبا هذه الأيام ، وان لدينا مدرسا هنا لتعليم الأطفال ، انهم يتلقون نفس التعليم الذى تلقيته تماما . ولكن بالطبع كانت سيسى معهم لوقت طويل . عزيزتى .. هل تعتقدين أن أختك

الصغيرة جين قدر لها حظ من السعادة أكبر منك ؟

– يا أبى .. ان وجهها يعطيك الاجابة على هذا السؤال ، وهى ان قدر لها أن تتجنب الطريق الذى سرت فيه ، فانه يجب عليها أن تشكر ربها .

– بالرغم أنك يا ابنتى لم توجهى الى أى لوم الا أن من الواجب أن ألوم نفسى ..

ثم أحنى رأسه **وبدأ يتكلم فى صوت شديد الخفوت والهدوء :**

– يبدو أن الحب قد غير أشياء كثيرة فى هذا البيت . ان هناك أشياء لا يستطيع العقل أن يفعلها بينما يقوم بها القلب فى هدوء . أليس هذا هو ما تعتقدين ؟

أغلقت لويزا عينيها .. ولما لم تجب .. انسحب أبوها من الحجرة بهدوء . وتذكرت لويزا يوم أخبروا والدتها بأمر زواجها . كانت سيسى تجلس بجوار سرير السيدة جرادجريند . وعندما سمعت ، رمقت لويزا عينيها فجأة بنظرة .. ولم تنسى لويزا أبدا هذه

النظرة .. نظرة اشفاق .. لم تنسها لويزا ولم تسامحها عليها والآن .. يبدو الأمر وكأن (ابنة المهرج قد زرعت الحب فى البيت و ...) .

أحست لويزا بيد دافئة تلمس رقبتها . لم تفتح عينيها ولكنها أحست بالدموع فيهما . ثم لامس خد ندى خدها فحاولت أن تستيقظ .. **فوجدت سيسى تقول لها فى هدوء وعطف :**

– أرجو ألا أكون قد أزعجتك . هل يمكننى أن أبقى هنا ؟

– سوف تفتقدك أختى ، وأنت كل شئ بالنسبة لها

– وكم أتمنى أن أصبح شيئا بالنسبة لك .

فنهضت لويزا ووقفت بجوار سريرها **وقالت لسيسى :**

– هل أرسلك أبى الى هنا ؟

– لا .. فقط قال أن بامكانى أن أراك . ولكن .. ربما لا ترغبين فى بقائى معك .

– وهل تحسين بأنى دائما أكرهك الى هذا الحد ؟

– أتمنى ألا يكون ، فأنا دائما أحبك كثيرا . حقا ان طريقتك معى تغيرت قبل أن تغادرى البيت . ولكنى لم أدهش حقيقة ، فأنت ذكية جدا بينما أنا فى منتهى الغباء ..

وتورد وجه سيسى وأكملت :

– ولكنى لم أتألم من هذا .

بل تألمت سيسى ولويزا تعلم هذا فأخذت يد الفتاة بين يديها **وقالت :**

– اننى مغرورة وقاسية .. غاضبة دائما وظالمة لكل الناس حتى لنفسى .. ألا يجعلك هذا تكرهيننى؟

– لا !

– اننى انسانة تعسة لأنى فقط بدأت أفكر فى أبسط الحقائق وأحتاج لمن يعلمنى الاحترام والشرف والحب ، أفلا يجعلك هذا تكرهيننى ؟

– لا !

فجثت لويزا على ركبتيها عند قدمى الفتاة وأمسكت بذيل ثوبها **وأخذت تقول فى استعطاف :**

– أوه ، سامحينى يا سيسى ! ارحمينى وساعدينى ! دعينى أوسد رأسى على قلبك المملوء بالحب !

فقالت سيسى وهى تبكى وتضم رأس لويزا لصدرها :

– أجل .. أجل يا حبيبتى ضعى رأسك هنا !

كان السيد جيمس هارتهاوس ينتظر – فى فندق كوكتاون – على أحر من الجمر ، كان يتوقع رسالة من لويزا ولكن لم تأت أية رسالة . اعتذر لتوم الابن عندما قابله فى يوم الأحد . كان يبدو على توم القلق كان يشكو من أن بيتزر يتعقبه فى كل مكان . كان السيد باوندرباى لا يزال متغيبا وكانت مسز سبارسيت قد غادرت المدينة سرا فى عربة . ولا أحد يعرف الى أين ذهبت .

فى مساء الأحد أصبح هارتهاوس قلقا هو الآخر . كان خائفا أن يكون شخص ما قد اكتشف حقيقة ما بينه

وبين لويزا ، ربما كان حتى باوندرباى يعرف السر . كان جيم يتساءل هل سيكون عليه أن يصارع زوج لويزا ! .. لم يكن جيم – فى الحقيقة – يجيد استعمال قبضته ! ... حاول جيم ان يتماسك ويحتفظ بهدوء « فلم تقلقه أية مصاعب أخرى » .. هكذا كان يقول فى نفسه « فلماذا اذن تفسد هذه المشكلة الصغيرة عليه عشاءه » . وبالفعل .. تناول عشاء جيدا فى حوالى السادسة ثم بدأ يقرأ كتابا ثم .. وبعد نصف ساعة **حضر اليه عامل الفندق وقال :**

– سيدة شابة تأمل فى رؤيتك يا سيدى ؟

– رؤيتى ؟!

ثم نهض بسرعة واقفا وقال :

– دعها تدخل يا رجل !

فدخلت الغرفة امرأة شابة لم يرها هارتهاوس من قبل . كانت بسيطة فى ملبسها هادئة ورائعة الجمال . **ثم قالت :**

– هل أنت السيد هارتهاوس ؟

– أجل ، أنا

ثم قال فى نفسه : « بالتأكيد هذه أجمل عيون رأيتها فى حياتى » .

– ان رسالتى سرية يا سيدى . هل يمكننى أن أعتمد عليك فى حفظ السر ؟

– يمكنك .

– وربماقد خمنت من أكون ؟

فقال هارتهاوس فى نفسه : « لها صوت جميل أيضا ! » ، **ثم قال لها :**

– اننى فى قلق منذ البارحة بشأن سيدة فاضلة فهل أتيت من عندها ؟

– نعم !

– أين هى ؟

– فى منزل أبيها فقد أسرعت الى هناك تحت المطر والرياح ليلة الأمس . اننى أعيش هناك أنا أيضا

وقد قضيت الليلة بجانبها . وتستطيع أن تتأكد يا سيدى أنك لن تراها ثانية .

فأخذ السيد هارتهاوس نفسا عميقا وحاول أن يفكر بذهن صاف . هذه الفتاة صغيرة جدا وهى تقول الحقيقة كما تفهمها . وهو متأكد أنها لا تكذب ، فقال :

ـ اننى حقيقة فى ذهول .. هل أعطتك السيدة هذه الرسالة اليائسة لى ؟

ـ لا .. انها لم تفعل !

ـ اذن ، فربما لن تكون هذه هى رغبتها ؟ وربما سأراها ثانية ؟

ـ ليس هناك أدنى أمل . يجب أن تصدق هذا يا سيدى !

ـ يجب أن أصدق ؟! ولكن ماذا ان لم أكن أستطيع أو لم أكن اريد أن أصدق ؟

ـ لن يغير هذا من أن هذه هى الحقيقة . ليس هناك أى أمل مطلقا !

فابتسم السيد هارتهاوس لها ولكن ابتسامته ضاعت . فقد كان عقله يحلق فى مكان بعيد عنه ثم قال :

ـ حسنا ، يبدو أنك واثقة من الأمر تمام الثقة . ولكن السيدة الفاضلة لم ترسلك وهذا أيضا صحيح . أليس كذلك ؟

ـ ان حبى لها هو الذى جاء بى الى هنا . وحبها لى يساعدنى فى توجيه خطواتى . فأنا أعرف قلبها وعقلها .. وقد أخبرتنى ببعض الأمور عن زواجها . أوه ، سيد هارتهاوس لقد أخبرتك أنت أيضا .. لأنها وثقت بك .

وأحس هارتهاوس بأن نوعا من الألم قد مس المكان الذى من المفروض أنه به قلبه وقال بلهجة ذات مغزى :

ـ ان من يثقون بى .. ربما كانوا غير حكماء . ان والد هذه السيدة « آلة » وأخاها « جرو » وزوجها « دب » ، واذا كنت قد تسببت لها فى أى أذى فيمكننى

أن أقول ـ فقط ـ اننى لم أكن أرغب مطلقا فى ايذائها. والآن أيتها السيدة الشابة ، أنت تلومينني . انك تعنين بكلامك أنى قد فعلت شيئا خاطئا وانى أقبل هذا منك .. وان كنت لا أقبله من أى انسان آخر . لا أعتقد أن أسلوبى فى الحياة سيتغير ولهذا يجب على أن أتعود الوضع الجديد .. فربما لن أرى السيدة ثانية .

فردت عليه سيسى برقة ولكن بحزم :

ـ سيد هارتهاوس ، يجب عليك أن تصلح ما أفسدت .. يجب أن تغادر هذه المدينة فى الحال ولا تعود اليها ثانية . ان هذا ليس تضحية كبيرة عليك .. وهو لن يكفى ولكنه ـ على أى حال ـ شىء أفضل من شىء .. كما أنه ضرورى جدا . وسيبقى سرا بيننا يا سيد هارتهاوس . غادر كوكتاون الليلة ولا ترجع أبدا !

ـ ولكن .. ولكننى هنا فى مهمة شعبية ، أنا

أعرف أن هذا غباء ولكننى سأرشح نفسى للبرلمان وهذا واقع !

ـ يجب أن ترحل الليلة يا سيد هارتهاوس .

ـ فكرى فى العار !...

ثم صمت برهة وعاد يقول :

ـ اذا رحلت .. فهل سيبقى السبب سرا ؟

ـ سوف أثق بك يا سيدى ، وسوف تثق بى ..

أخذ هارتهاوس يتمشى فى الغرفة لعدة دقائق مستغرقا فى التفكير ثم عاد ثانية لسيسى وقال وهو يضحك :

ـ ان ما قدر له أن يكون حتما سيكون . وهذا الأمر سيكون على ما أعتقد . لقد وجهت الى ضربة موجعة يا سيدتى الشابة ، فهل لى أن أعرف اسم عدوى ؟!

ـ اسمى يا سيدى ؟

ـ أجل ، انه الاسم الوحيد الذى أود معرفته الليلة .

— سيسى جوب !

— هل أنت قريبة السيدة ؟

— لا ٠ انما أنا ابنة مهرج السيرك ٠ وقد تركنى أبى فأشفق على السيد جراد جريند ٠ وأنا أعيش فى بيته منذ ذلك الوقت ٠

ثم غادرت الغرفة ٠٠

فألقى السيد هارتهاوس بجسمه فوق المقعد وهو يقول لنفسه : « هذا يكمل حلقة العار ٠٠ ابنة مهرج سيرك وتلف جيمس هارتهاوس حول اصبعها الصغير !»

ثم جلس وكتب رسالة صغيرة لأخيه **قال فيها :**

« اننى مللت الحياة فى كوكتاون وقد قررت أن أسافر الى مصر ٠ سأكتب لك ثانية من القاهرة ٠ جيم » ٠

ولم تمض الساعة الا وكان السيد هارتهاوس فى القطار المتجه الى لندن ٠٠

الفصل التاسع عشر

عرفت مسز سبارسيت أن السيد باوندرباى فى لندن ، فسافرت اليه فى صباح الأحد وقابلته فى فندقه ٠ قالت أن زوجته قد هربت بصحبة السيد هارتهاوس٠٠وعاد المصرفى ومدبرة منزله الى كوكتاون فى مساء هذا اليوم ٠ واتجها مباشرة الى «ستون لودج» واندفعا الى غرفة مكتب السيد جرادجريند ٠

وبادر باوندرباى توم جراد جريند قائلا :

— والآن يا توم جراد جريند ٠٠ اسمع فان لدى مسز سبارسيت ما تقوله لك عن إبنتك الذكية ٠

فأصاب الذهول السيد جراد جريند **وقال مخاطبا باوندرباى :**

— لقد كتبت لك بالأمس يا باوندرباى ! أنت لم تتسلم رسالتى بالطبع ! ٠٠

فصرخ باوندرباى :

— ان هذا ليس وقت الرسائل يا سيدى ! قولى له يا سيدتى ٠٠ قولى له ما أخبرتنى به !

كان الاعياء قد أصاب مسز سبارسيت من جراء الخوض فى العاصفة فلم تستطع الا أن تخرج بعض الأصوات الواهنة غير المفهومة مما أثار غضب السيد باوندرباى **فصرخ :**

— اسمع يا توم جراد جريند لقد استمعت مسز سبارسيت لمحادثة بين ابنتك وصديقك جيمس هارتهاوس ٠٠ لقد سمعت أن ٠٠

فقاطعه جراد جريند :

— لست بحاجة لترديد ما سمعته ، فأنا أعرفه !

فصرخ باوندرباى فى دهشة

— تعرفه ! وهل تعرف أين ابنتك الآن ؟

— بالتأكيد ! انها هنا ٠٠ !

— هنا ؟!

فقال جراد جريند بنفاد صبر :

— باوندرباى ٠٠ أرجوك لا تصرخ ثانية ٠ لقد هرعت لويزا الى هنا بمجرد أن استطاعت التخلص من هارتهاوس ٠ ثم جاءت الى البيت ٠ رغم العاصفة الشديدة ، وهى الآن مريضة وملازمة للفراش منذ ليلة الأمس

فاستدار باوندرباى غاضبا الى مسز سبارسيت وقال لها :

— والآن ٠٠ أيتها السيدة ٠٠ فاننا نكون سعداء ماع اعتذارك ٠ ان كل قصتك كانت محض هراء !

فقالت مسز سبارسيت باكية :

ـ سيدى .. سيدى ، اننى مريضة ولا أستطيع أن أقول شيئا الآن .

ـ حسنا يا سيدتى .. ان العربة ما زالت بالباب ، عودى الى شقتك . وانعمى بحمام ساخن ! .. ثم اذهبى الى فراشك !

قال باوندرباى هذا ثم أخذها من يدها الى الخارج حيث تقف العربة ، وبعد دقيقة عاد بمفرده **وقال لجراد جريند فى خشونة :**

ـ والآن ـ جراد جريند ـ أرجوك اشرح لى كل شىء .

ـ أخشى .. أننا لم نستطع أبدا أن نفهم لويزا .

ـ تكلم عن نفسك فقط يا جراد جريند ، فأنا كنت دائما أفهمها .

ـ اذن لنقل .. أنى لم أفهمها ، وقد ارتكبت أخطاء جسيمة فى تربيتها .

ـ بالتأكيد ! اننى لا أؤمن بأى طريقة فى التربية .. خلاف اللكمات يا سيدى . لكمات قوية وعصا قاسية !

ـ ان هذا مستحيل فى التعامل مع امرأة شابة يا باوندرباى !!

فتساءل باوندرباى بغباء :

ـ ما هو هذا المستحيل ؟

ـ أوه ان هذا لا يهم الآن ، يجب علينا أن نحاول اصلاح الضرر الواقع . وأنا أحتاج مساعدتك فأنا جد تعس لما أصاب لويزا ..

ـ لن أعدك بشىء يا جراد جريند ..

ـ كل ما أرجوه هو .. أن تترك لويزا وحدها لفترة . الرعاية والحب سوف يعطيان أفضل النتائج .. لقد كانت دائما أفضل أطفالى .

فاحمر وجه باوندرباى وقال :

ـ هل تريد أن تستبقيها هنا ؟!

ـ يمكننا أن نعتبرها فى زيارة لنا . ان سيسى أعنى سيسيليا جوب ـ تفهم لويزا ، ولويزا تثق فيها .

ـ اسمع يا جراد جريند ، اننى جوزيه باوندرباى .. وجيه كوكتاون ، وكون ابنتك زوجتى .. يعتبر شرفا لا تستحقه ! .. ما الذى ترجوه من هذه الزيارة؟

ـ لقد أخبرتك . ان لويزا غير سعيدة ، وأرجو أن تعمل على اسعادها .. هل هذا كثير ؟! انك تكبرها سنا بكثير .. وأنا قد قبلت ..

فقاطعه باوندرباى غاضبا :

ـ أنا أعرف هذا .. وتلك مشكلتى وحدى .

ـ لقد ارتكبنا ـ كلنا ـ أخطاء يا باوندرباى . ويجب علينا أن نفعل شيئا لتصحيحها . وسيكون عطفا منك لو أنك قبلت خطتى .

ـ أنا لا أوافق يا جراد جريند ، ولكنى لن أتشاجر معك . ولكن .. يجب على صديقك هارنهاوس أن يغادر كوكتاون قبل أن أصادفه فى طريقى .. بالطبع

يجب على ابنتك أن تعود الى بيتها .. بيتى . سوف أنتظرها غدا ظهرا . واذا لم تأت .. يمكنها ـ اذن ـ أن تبقى بعيدة للأبد .

ـ أرجوك يا باوندرباى .. بل انى أتوسل اليك أن تفكر ثانية .

ـ لا يا سيدى ، ان جوزيه باوندرباى لا يتنازل عن رأيه . ان هذا هو كل ما أود أن أقوله لك . تصبح على خير .

وعاد السيد باوندرباى الى بيته فى مدينة كوكتاون .. ولم تأت لويزا فى ظهر اليوم التالى . وفى الظهر تماما أعطى باوندرباى أمرا لخدمه بأن يجمعوا ملابس لويزا فى صناديق وأرسلها الى ستون لودج . وبعد عدة أيام .. عرض السيد باوندرباى بيته الريفى للبيع . وقد أعطاه هذا التغيير الجديد فى حياته مزيدا من الوقت للعمل .

كان قد عقد عزمه على العثور على من سرقوا مصرفه ولم يكن مسموحا لرجال الشرطة بالراحة من الجهد

المتصل حتى يقبضوا على اللصوص .. لم تكن هناك أنباء عن ستيفن بلاكبول ، كما أن لغز المرأة العجوز بقى لغزا . وأعطى السيد باوندرباى وعدا بأن يمنح عشرين جنيها لمن يدله على مكان بلاكبول .

كانت راشيل فى شدة القلق . أما سلاكبريدج ـ الرئيس المحترف لنقابة العمال ـ فكان سعيدا فاذا ثبت أن بلاكبول لص .. فان سلاكبريدج يصبح على حق فى كل ما قال ! .

عندما سمعت راشيل بأمر الجائزة .. ذهبت الى بيت السيد باوندرباى . ثم .. وفى احدى الأمسيات وصل ثلاثة زوار الى ستون لودج .. السيد باوندرباى راشيل وتوم الابن أخذتهم سيسى الى حجرة السيد جراد جريند ، حيث كانت لويزا تتحدث مع والدها .

ووقف توم الابن فى ركن مظلم بجوار باب الحجرة . **وبدأ السيد باوندرباى الكلام قائلا :**

ـ أرجو ألا أكون قد أزعجتك .. هذه المرأة .. (وأشار الى راشيل) وقد تكلمت معى . وتوم

جرادجريند ـ ابنك ـ رفض أن يعلق بشيء ! ربما كان باستطاعة مسز باوندرباى أن تخبرنى بالحقيقه .

وقفت راشيل أمام لويزا وقالت :

ـ لقد رأيتنى مرة من قبل يا سيدتى الشابة ..

فسعل توم الابن . فاعادت راشيل كلامها :

ـ لقد تقابلنا من قبل أليس كذلك ؟

فسعل توم ثانية ..

فاجابت لويزا :

ـ نعم التقينا .

ـ هل يمكن أن توضحى سبب لقائنا . ومن كان حاضرا فى هذا اللقاء ؟

ـ لقد التقينا فى غرفة ستيفن بلاكبول .. كان هذا بعد أن غادر بيت السيد باوندرباى . وقد رأيتك هناك مع بلاكبول .. كما كانت هناك امرأة عجوز ـ أيضا ـ كما أن أخى توم كان بصحبتى .

وهنا تساءل باوندرباى قائلا وموجها الكلام لتوم الابن :

ـ لماذا لم تستطع ان تقول هذا يا توم ؟!

فقال توم :

ـ لقد وعدت أختى بألا أفعل .

استأنفت راشيل حديثها قائلة :

ـ سيدتى الشابة الطيبة ، هل يمكنك أن تقولى لماذا جئت لغرفة ستيفن بلاكبول ؟

ـ كنت حزينة لأجله ، وأردت أن أقدم له بعض المساعدة .

فقال باوندرباى فى غضب مكتوم :

ـ شكرا .. سيدتى ! أطرد الرجل .. فتذهبين أنت لتقديم المساعدة له !

وتساءلت راشيل :

ـ كم عرضت عليه يا سيدتى .. ؟

ـ أربعة جنيهات .. ولكنه أخذ جنيهين فقط .

فنظرت راشيل فى كبرياء الى السيد باوندرباى ،
فصاح باوندرباى :

ـ آوه .. نعم ، يا سيدتى . يبدو أنه يجب على أن أصدق بعض الهراء الذى أخبرتنى به .

فاخذت راشيل تبكى وهى تقول للويزا :

ـ ان ستيفن بلاكبول رجل شريف . ولكن .. كل من فى المدينة يظنون أنه سرق المصرف . ان هذا غير صحيح ! أنا أعرف أنه غير صحيح .

فقالت لويزا :

ـ اننى فى غاية الأسى

فقالت راشيل :

ـ انه سيعود ثانية .. غدا أو بعد غد . كان عليه أن ينتحل اسما آخر ليجد عملا . ولكنى كتبت اليه وسيعود وسوف يثبت أنه برىء .

فضحك باوندرباى وقال :

ـ خبرينا باسمه الجديد ! خبرينا أين هو ؟!

فاستمرت راشيل فى البكاء **وقالت :**

ـ ان هذا ليس عدلا ، ان ستيفن لم يرتكب ذنبا !

اذا أخبرتك بمكانه . اذن لذهب أحدهم واحضره .. ألا تفهم ؟! ليس هناك داع لاصطياده .. سوف يأتى بنفسه ..

بعد دقائق معدودة غادر السيد جراد جريند وتوم الابن (ستون لودج) .. وطوال هذا الحوار السابق ، لم يتفوه السيد جراد جريند أو سيسى بكلمة واحدة.

والآن توجهت سيسى بالحديث الى راشيل قائلة :

ـ هل يعلم ستيفن بسبب ظن الناس به السوء ؟

ـ لقد أخبرته أن هؤلاء الناس رأوه يراقب المصرف . أنا لا أعرف لماذا ذهب الى هناك ، فلم يكن هذا المكان قريبا من بيته .

وعرضت سيسى أن تذهب الى بيت راشيل فى اليوم التالى لترى ما اذا كان ستيفن قد عاد ، على أن تحمل الأخبار الى ستون لودج . ووافق الجميع على هذه الخطة . ثم عادت راشيل الى بيتها.

وعندما رحلت راشيل **سأل جراد جريند ابنته بنبرة حنون قائلا :**

ـ لويزا .. عزيزتى .. هل تعتقدين أن بلاكبول قد سرق المصرف فعلا ؟

ـ لا يا ابى أنا واثقة من أنه رجل شريف .

ـ وهكذا تعتقد المرأة أيضا . ولكن هل يعرف اللص الحقيقى ماذا يقول الناس ؟ أين هو اللص الحقيقى ؟ من يكون ؟

لاحظت لويزا تلك النظرة التى أطلت من عينى سيسى ـ كانت تعرفها من قبل ـ نظرة حب ورثاء .

ثم جلست لويزا بجوار مقعد أبيها .

ومر اليوم التالى ، والذى يليه ولم يحضر بلاكبول وفى اليوم الرابع ذهبت راشيل الى بيت باوندرباى ثانية . وبالرغم أنها ما زالت تثق ثقة تامة فى ستيفن فقد أعطت اسمه الجديد وعنوانه للسيد باوندرباى . كان ستيفن يعيش فى مدينة تبعد عن كوكتاون ستين ميلا .

وتم ارسال الرجال ليحضروا ستيفن بلاكبول . بينما بقى توم (الابن) ملاصقا لباوندرباى . كان فى

غاية الاثارة .. يكاد أن يكون مريضا. لم يكن يستطيع الكف عن قضم أظافره . وعاد الرجال بدون ستيفن ، وقيل أن بلاكبول لا بد قد تسلم رسالة راشيل وفر هاربا فى الحال . ولا أحد يعرف الى أين ذهب ..

ومر أسبوع ولم يظهر ستيفن ، فبدا على توم (الابن) أنه قد وجد قدرا جديدا من الشجاعة . كان يقول للناس « بالطبع بلاكبول هو اللص ، اذا لم يكن هو اللص فلماذا اذن لم يعد ؟! » .

ولكن أين بلاكبول ؟ ولماذا لم يعد ؟!

أخذت هذه الأسئلة تطن فى أذن توم (الابن) طوال الليل !

الفصل العشرون

لم يعد ستيفن بلاكبول .. ومازالت الشرطة تبحث عنه . كانت سيسى تذهب لبيت راشيل كل مساء تقريبا ، ولكن لم تكن ثمة أخبار جديدة . أصبحت راشيل سعيدة لأنها أخيرا عثرت على صديقة تثق بها وبستيفن . وقد حملت سيسى الحب والسلوى معها وسرعان ما صارت المرأتان صديقتين حميمتين . وبعد هذه المقابلات ، كانت راشيل تمشى مع سيسى نصف طريق عودتها للبيت فى كل ليلة وفى احدى المرات شاهدتهما مسز سبارسيت وهما تمشيان معا فى الشارع .

في اليوم التالى – أثناء وقت الغداء – زارت مسز سبارسيت راشيل فى بيتها وسألتها بعض الأسئلة التى حاولت راشيل أن تجيب عليها · ثم فى صباح اليوم التالى – الجمعة – غادرت مسز سبارسيت كوكتاون بالقطار فى ساعة مبكرة ·

وفى مساء نفس اليوم ذهبت سيسى الى بيت راشيل ، وكالعادة ·· لم تكن هناك أية أخبار عن ستيفن · ولكن الفتاتين تجاذبتا أطراف الحديث لبعض الوقت ثم تواعدتا على اللقاء صباح الأحد · فقد فكرت سيسى أن راشيل ربما تحتاج لنزهة فى الخلاء ، فالهواء الطلق سيكون مفيدا لها · وفى السابعة غادرت سيسى وبصحبتها راشيل بيت راشيل وسارتا فى اتجاه ستون لودج ··

لا بد أن القطار قد وصل الآن ·· لأن هناك عربات كثيرة تجرى فى الشارع تحمل القادمين من أو الذاهبين الى المحطة وفى سيرهما مرتا – راشيل وسيسى – ببيت السيد باوندرباى حيث توقفت عربة

أمام الباب ونزلت منها مسز سبارسيت التى ما ان رأت الفتاتين حتى صاحت :

– هذه فرصة عظيمة ! يجب أن تريا هذا !

ثم صرخت آمرة :

– انزلى ··· انزلى والا ألقينا بك خارج العربة !

ونزلت من العربة سيدة عجوز أمسكت مسز سبارسيت بتلابيبها وقالت :

– لا تمسوها ·· أنا التى أمسكت بها ، أدخلى يا سيدتى ·· الى البيت والا ·· والا دفعناك للداخل بالقوة !

ودخلت مسز سبارسيت والسيدة العجوز وأناس آخرون كثيرون الى بيت السيد باوندرباى لقد تعرفت راشيل على السيدة ! ·· انها « مسز بيجلر » ! وتذكرت راشيل أسئلة مسز سبارسيت ·

قالت مسز بيجلر بعض الكلمات بصوت خافت ، وردت عليها مسز سبارسيت قائلة :

– لا ! لن أدعك تذهبين !

ثم نادت بأعلى صوتها :

– يا سيد باوندرباى ! ·· يا سيد باوندرباى !

وما أن دخل السيد باوندرباى الى القاعة حتى أصابه الذهول ·· هو والسيد جراد جريند وتوم الابن اللذين كانا بصحبته ·

وبعد لحظات قال السيد باوندرباى :

– مسز سبارسيت يا سيدتى ·· ماذا يحدث هنا ؟!

فاجابت مسز سبارسيت بتفاخر :

– سيدى لقد وجدت الشخص الذى تبحث عنه ·· صديقة بلاكبول ، لم تكن تريد المجىء ·· لكن ···

ثم دفعت مسز سبارسيت مسز بيجلر للأمام ، فاحمر وجه باوندرباى ثم تحول الى اللون الأزرق ثم صاح :

– مسز سبارسيت ! ماذا يعنى هذا ؟!

– سيدى · انها المرأة العجوز !

– ان هذا الأمر يعنينى وحدى · فلماذا تدسين أنفك فيما يعنى عائلتى فقط ؟!

فارتمت مسز سبارسيت على المقعد بعنف وأخذت تفرك يديها ، بينما كانت مسز بيجلر ترتعش وقالت وهى تبكى :

– عزيزى جوزيه ·· ولدى العزيز ! لم تكن غلطتى ، وقد أوضحت للسيدة عدة مرات أنك لن تكون راضيا عن هذا ولكنها أجبرتنى على المجىء الى هنا ··

فصاح باوندرباى :

– ولماذا تركتها تأتى بك الى هنا ؟ لماذا لم تقيديها أو تحطمى أسنانها ؟

– يا ولدى الحبيب ·· كانت تنوى استدعاء الشرطة ولم أكن أريد هذا يا جوزيه ، لقد بررت بوعدى لك ، وعشت فى هدوء وأصبحت أفتخر بك من بعيد ·· كنت أحضر لكوكتاون مرة أو مرتين فى العام ·· لكنى لم أخبر أحدا بأنى أمك ·· !!

كان كل من بالقاعة ينصتون لكل كلمة ، بينما كان باوندرباى يتحرك من ركن الى ركن فى غضب عنيف ومسز سبارسيت غارقة فى البكاء ..

ثم قال جراد جريند موجها الكلام لمسز بيجلر :

– ان ما تقولينه هراء يا سيدتى . فوالدة السيد باوندرباى كانت قد ألقت به فى الشارع وتركته منذ أن كان طفلا صغيرا .. كانت فى منتهى القسوة معه .. وقد استطاع هو أن يبنى نفسه بنفسه !

– أنا كنت أما قاسية ؟! أنا ألقيت بابنى فى الشارع ؟! .. سامحك الله يا سيدى .. ان لك خيالا شريرا !

لم يكن السيد جراد جريند يتخيل أى شىء .. لهذا دهش .. هل كان باوندرباى يكذب كل هذا الوقت على كل الناس ؟!

ثم قال جراد جريند بعد برهة :

– حسنا ، ألم يعتنى ابنك بنفسه منذ وقت مبكر جدا فى حياته ؟

فردت عليه مسز بيجلر قائلة :

– لا يا سيدى لم يفعل . لم نكن أغنياء .. أعرف .. فقد مات أبوه .. زوجى عندما كان جوزيه فى الثامنة من عمره وقد عملت وكافحت حتى يتسنى لابنى أن يلتحق بالمدرسة .. كنت أعانى ولكنى كنت مستمتعة بالمعاناة .. لأنى كنت أحبه . ثم .. وجدت عملا له وقد أخذ يعمل هو الآخر بجد واجتهاد . والآن ها هو قد أصبح رجلا غنيا من الوجهاء وانى لفخورة به ...

واستأنفت مسز بيجلر الحديث قائلة :

انه لم ينسنى أبدا – يا سيدى – كان يدفع لى ثلاثين جنيها فى العام .. تكفينى وتزيد عن حاجتى ومازال لدى (دكان) صغير فى القرية وقد وعدته أن أبقى هناك . فقد أراد جوزيه ألا أتدخل فى حياته وقد حفظت عهدى معه لدرجة أنى لم أتحدث اليه طوال عشرين عاما ، وما كنت لأحضر الى هنا لو لم تحضرنى

هذه السيدة ، ولهذا .. أنت على خطأ يا سيدى ! فانا كنت دائما أما طيبة لابنى وهو سيخبرك بهذا بنفسه !

صفق كل من بالقاعة وحيوا مسز بيجلر على هذه الخطبة الطويلة . لم يقل السيد جراد جريند شيئا بينما كان وجه باوندرباى محمرا جدا .. كان غاضبا لدرجة بدا معها أنه على وشك الانفجار ثم حرك ذراعه فى الهواء وهو يصيح :

– اذا كنتم قد استمعتم جميعا الى ما يكفى من أسرارى ، فربما .. تتكرمون بالخروج من بيتى . فلست أنوى ايضاح أو تفسير أى شىء .. كذلك توم جراد جريند سيصاب بخيبة أمل . ولكن يمكن أن أقول لكم شيئا واحدا .. ان أمى لم تساعد أى انسان على سرقة مصرفى .. والآن .. أسعد الله مساءكم جميعا !!

قال باوندرباى كلماته الأخيرة وهو يفتح الباب ليخرج الجميع ..

وما كادت تمر الساعة الا وكان كل من فى كوكتاون قد علم بالحقيقة .. وهى أن باوندرباى كذاب

لأن له أما رقيقة حنون وهو ليس بالرجل « الذى صنع نفسه بنفسه » انه ليس الا وجها سمينا .. أحمر .. غاضبا و .. كذابا ! حتى مسز سبارسيت بدت وكأنها أكثر أمانة من باوندرباى أغنى أغنياء كوكتاون .

لم تعد مسز بيجلر الآن سرا على أى انسان وهذا يعنى أن فرصة ستيفن بلاكبول أصبحت أفضل ولكن لويزا وسيسى .. وراشيل أيضا .. كن يعانين من مخاوف رهيبة . فنفرض أن ستيفن بلاكبول استطاع أن يثبت براءته .. اذن لا بد أن شخصا آخر هو المذنب والدليل – دليل البراءة – سيشير الى المذنب الحقيقى ، وكانت راشيل تعتقد أن هذا الشخص – المذنب الحقيقى – قد منع عودة ستيفن . كانت تخشى أن يكون شخص ما قد قتل ستيفن .

أما مخاوف لويزا وسيسى فكانت ترتبط – سرا – بتوم (الابن) . ولم تجرؤ أى منهما على الحديث عن أفكارهما ، وان كانت كل منهما تعرف ما يدور فى

رأس الآخرى · فى هذه الأثناء بقى توم بالقرب من باوندرباى وستيفن بلاكبول لم يعد بعد !

فى يوم الأحد ، خرجت سيسى وراشيل من محطة القطار فى الريف · كان المكان بين كوكتاون ومنزل السيد باوندرباى الريفى · كان يوما جميلا مشرقا من أيام الخريف · أخذتا تتمشيان عبر الحقول فى طريق طويلة مظللة ·· كان الريف لا يزال أخضر ناضرا وقد حاولتا أن نتجنبا المبانى الخالية السوداء التى كانت تتبع مناجم الفحم القديمة · وفى الظهيرة جلستا تستريحان ··

وقالت سيسى :

— ان المكان هادىء جدا هنا ، فالناس لم يعودوا يستعملون هذه الطرق الآن ·

وبينما هى تقول هذا لاحظت سياجا قديما محطما على بعد عدة خطوات منها فنهضت لتلقى نظرة عليه **وهى تقول :**

— ان شخصا ما قد كسر هذا السياج حديثا ··
أوه راشيل تعالى ! هناك قبعة ملقاة على الحشائش !

ارتعدت راشيل عندما التقطت القبعة من الأرض · نظرت داخلها فرأت الاسم ستيفن بلاكبول !

فقالت فى ذهول خالطه الحزن :

— آه ·· رجلى المسكين ! أيها الرجل المسكين ! لقد قتل ! لا بد أنه يرقد فى مكان ما قريب من هنا يا سيسى ·

ونظرتا حولهما دون أن تتحركا · لم يستطيعا رؤية شىء آخر يخص ستيفن · **فقالت سيسى :**

— سوف أسير للداخل قليلا ·

ولم تكد تتحرك سيسى للأمام حتى صرخت راشيل صرخة عالية وأمسكت سيسى بكلتا يديها وجذبتها للخلف ·· فأمامها كانت توجد حفرة عميقة سوداء تكاد تكون مختفية بين الأعشاب الكثيفة الطويلة !

وأخذت راشيل تبكى وتقول فى ذهول :

— آه يا ربى ·· انه تحت ·· هناك ! تحت !

وأخذت تبكى وتصرخ ولم تستطع سيسى أن تفعل شيئا لتوقفها ·· **وأخيرا قالت سيسى :**

— عزيزتى راشيل يجب علينا أن نفكر فى ستيفن ، فاذا كان هنا فى هذه الحفرة ·· فربما كان لا يزال حيا ويجب أن نحصل على مساعدة بسرعة ·

— نعم ·· نعم ! نحصل على مساعدة !

فتوجهت سيسى الى حافة الحفرة **وأخذت تنادى :**

— ستيفن ·· ستيفن !!

نادت عشرين مرة ولكن ·· لا مجيب !

ثم قالت :

— لا يجب أن نضيع أى لحظة أخرى · يا راشيل ·· يجب أن نتحرك فى اتجاهات مختلفة لنبحث عن من يساعدنا · اخبرى كل من تقابليه بما حدث · يجب أن يحضروا معهم حبالا طويلة ، يجب أن نرسل رسالة

لكوكتاون كما أننا بحاجة لطبيب · اسرعى الآن يا راشيل ! فكرى فى ستيفن ·· عودى أنت من نفس الطريق وسأسير أنا للأمام ··

كانت الساعة الخامسة مساء عندما تم اخراج ستيفن — المكسور جسمه — من الحفرة · كان لا يزال حيا ·· ولكن ·· فقط لا يزال حيا ·

فى هذا الوقت وصل السيد جراد جريند ولويزا وأيضا وصل السيد باوندرباى وبصحبته الجرو ومعهما الطبيب · أعطى الطبيب لستيفن بعض الأدوية القوية وما هى ألا بضع دقائق حتى كان ستيفن قادرا على الكلام ·

كان يسير من مكان عمله فى طريق كوكتاون متوجها الى بيت السيد باوندرباى الريفى ·· انه لم يسرق المصرف ولم يستطع أن يصبر حتى يثبت هذا ·· ولذلك عبر هذه الضاحية الخطرة فى الليل فسقط فى هذه الحفرة ·

انحنت عليه راشيل وقالت :

ـ انك تعانى ألما عظيما يا رجلى الحبيب ٠٠ انه لأمر فى غاية السوء ؟

ـ لم يعد هكذا الآن يا راشيل ٠٠ كان رهيبا ٠٠ ولكنه لم يعد الآن ٠ انها لخبطة ٠٠ كل شىء لخبطة ٠٠ أنظرى الى السماء يا راشيل ٠٠ هل ترين هذه النجمة ؟

نظر الجميع نحو السماء وشاهدوا نجمة من نجوم السماء اللامعة ٠ **واستأنف ستيفن الكلام :**

ـ كنت أنظر اليها من مكانى فى قاع الحفرة يا راشيل ٠٠ وكنت أحس أنها تخبرنى بالحقيقة ٠ عندما تسلمت رسالتك يا راشيل تذكرت السيدة الشابة وأخاها ٠٠

هنا تحركت لويزا للأمام ومالت برأسها بالقرب من ستيفن **الذى استطرد :**

ـ وظننت أنهما دبرا الأمر معا ٠٠ كنت أهرول لأوجه اليهما الاتهام عندما سقطت فى هذه الحفرة ، ثم

٠٠ بالنظر طويلا الى النجمة ٠٠ رأيت الامور أكثر وضوحا ٠

ثم تحول الى لويزا وقال :

ـ لقد فهمتك الآن أيتها السيدة ٠٠ جزاك الله كل خير ٠٠ هلا تكرمت وحملت منى رسالة لأبيك ؟

كانت لويزا ترتعش وهى تجيبه قائلة :

ـ انه هنا !

ثم نادت أباها ٠٠ فجاء السيد جراد جريند ، **فقال له ستيفن :**

ـ سيدى ، ليس لدى الكثير من الوقت ٠٠ يجب عليك أن تثبت أنى رجل شريف ٠٠ اننى أترك سمعتى بين يديك ٠

فأحس السيد جراد جريند بالقلق **وسأله قائلا :**

ـ وكيف أستطيع أن أفعل هذا ؟

ـ ابنك سيخبرك يا سيدى ٠ اننى لا أتهم أى انسان ، ولا أقول كلمة واحدة ضد انسان ٠ ولكنى

وابنك كنا قد تحادثنا ذات ليلة ٠ كان يعرف لماذا كنت أنتظر كل مساء أمام البنك ٠ انه يعرف وارجو أن يحكى لك ٠

فى هذه اللحظة تركت سيسى المجموعة الصغيرة المتحلقة حول ستيفن وذهبت الى حيث كان يقف السيد باوندرباى وتوم (الابن) تحت الظل وهمست بشىء ما فى اذن توم !

بعد هذا صنع الرجال الذين أنقذوا ستيفن سريرا من أجله ولفه الطبيب بالأربطة والقطن وارقده فوق المحفة ـ التى صنعها الرجال ـ ثم حمله اربعة رجال وساروا به عبر الطريق ٠٠ وبينما هم سائرون به قال ستيفن موجها حديثه لراشيل :

ـ راشيل ٠٠ حبيبتى ٠٠ أمسكى بيدى ٠٠ يمكننا الليلة أن نسير معا بدون خجل ٠

ـ سوف أحتضنها يا ستيفن وسأبقى بجانبك

ـ وهبك الله حبه ! من فضلكم هل يتكرم أحدكم بوضع الغطاء على وجهى ٠٠ ؟!

وحمله الرجال بلطف بالغ ٠٠ لم يتكلم ستيفن ثانية ٠٠ وقبل أن يصل الموكب الى محطة القطار ٠٠ كانت يده قد أصبحت ٠٠ باردة تماما ٠٠

ولم يكن توم (الابن) فى الموكب !!

الفصل الحادى والعشرون

لم يشاهد توم جراد جرينd (الابن) فى كوكتاون ثانية ٠ ففى مساء يوم الأحد ذاك ٠٠ أخذ توم بنصيحة سيسى ــ التى همست بها فى أذنه ــ وسافر فى الحال الى ليفربول على بعد ثلاثين ميلا من كوكتاون ٠ وهناك عثر على سيرك سليرى وأعطى للسيد سليرى رسالة من سيسى ٠

وبناء عليها لم يوجه السيد سليرى أية أسئلة « لتوم » **فقط قال بشهامة :**

ــ لقد كان السيد جراد جريند كريما مع سيسى



منظر السوق شمال المدينة

ولهذا ٠٠ فانا على استعداد لتقديم العون لابنه ٠

وهكذا أخذ توم زى مهرج ولون السيد سليرى وجهه بالألوان البيضاء والحمراء والسوداء ، وأصبح على توم أن يعاون المهرجين فى عملهم ٠

وبعد يومين وصل السيد جراد جريند وبصحبته لويزا وسيسى الى السيرك وشرحوا خطتهم للسيد سليرى ٠٠ يجب أن يهرب توم الى أمريكا ، وثمة سفينة ستغادر ليفربول فى هذه الليلة ووافق السيد سليرى على هذه الخطة ثم أحضر توم الى داخل الخيمة وتركه مع عائلته وحدهم ٠

دفن جراد جريند وجهه بين يديه حينما رأى ابنه فى زى المهرج ٠ **واجهش بالبكاء واخذ يقول :**

ــ لماذا ؟! ٠٠ لماذا ؟! فعلت هذا ؟

ساله توم بغباء :

ــ فعلت ماذا ؟

ــ لماذا سرقت المصرف ٠٠ ان هذا الخبر قد هدنى من الاعياء ٠

ــ كان يجب عليك أن تتوقع هذا ، لقد جعلتنى أعمل فى مصرف ، وعندما يعمل خمسون رجلا فى مصرف فلابد أن أحدهم سيسرق أمواله ٠٠ هذه واحدة من أشهر حقائق الواقع التى علمتها لنا ٠

لقد رددتها على سمعى مئات المرات ٠٠ كنت دائما تجد الراحة مع حقائق الواقع ٠٠ حسنا ٠٠ تمتع بهذه الحقيقة اذن !

احنى السيد جراد جريند راسه وقال :

ــ يجب أن ترحل عن انجلترا الليلة ٠٠

وأعطى لتوم ظرفا مغلقا وأكمل حديثه :

ــ ها هى التذكرة وبعض النقود ٠ أرجو أن تفعل شيئا طيبا فى حياتك القادمة ٠ لقد كانت جريمتك مروعة وكانت لها نتائج مروعة ، ولكن ٠٠ هات يدك يا ولدى المسكين ٠٠ اننى أدعو الله أن يسامحك كما سامحتك ٠

كان توم يبكى ففتحت لويزا له ذراعيها لتحتضنه **ولكنه صرخ قائلا :**

– لا ! ‥ لا ! ‥ لا أريد أن ألمسك ! كل هذا كان بسببك ، فأنت لم تهتمى بأمرى أبدا !

فانفجرت لويزا فى البكاء ‥ **وفى هذه اللحظة دخل سليرى وقال :**

– يجب أن نسرع فأمامنا ستة أميال لنصل الى المرفأ والسفينة لن تنتظر من أجلنا ‥

وخرج الجميع ليتوجهوا الى المرفأ ولكن ‥ فجأة خـرج رجـل من خلف الخيمـة ‥ انه بيتزر **كانت ترتسم على وجهه ابتسامة خبيثة وقال :**

– لقد تبعتكم من كوكتاون الى هنا ، واستمعت الى حديثكم . أعتذر لافساد خطتكم ‥ فالسيد توم (الابن) يجب أن يأتى معى . كنت دائما أعتقد أنه هو الذى سرق المصرف والآن تأكدت أن ظنى كان فى محله .

أخذ السيد جراد جريند يهتز **ويتوسل الى بيتزر :**

– بيتزر ‥ أليس لديك قلب ينبض بالدفء ؟

– أجل يا سيدى ان البشر الأحياء كلهم لهـم قلب ينبض بالدفء ‥ هذه حقيقـة معـروفة جـدا ، فحرارة الجسم ‥

فقاطعه السيد جراد جريند صائحا :

– أجل ‥ أجـل يا بيتزر ولكن ‥ ألا تشعر بالرثاء لحالنا ؟ هل تفكر من أجلنا أم من أجل بعض المكافأة .

– رثاء ! ‥ لا ‥ فالرجـال العقلاء لايهتمون بغير الحقائق المادية ياسيدى . اننى لا أكره السيد توم ولكننى سأحصـــل على مكانه بالمصرف بعد أن يقبض عليه .

– هل يمكننى أن أعرض عليك شيئا ؟ كم من المال ؟ ‥

– أعتذر لقطع حديثك ياسيدى . اذا أنا قبلت المال ‥ فسأكون شريكا فى الجرم ، أفضل أن أحصل على مكان السيد توم (الابن) فى المصرف ‥

كان السيد سليرى يستمع للحديث بفم مفتوح من الدهشة ، **ثم ابتسم خفية لسيسى وقال :**

– حسنا ، ياسيدى . ان هذا الأمر لجد خطير ‥ اننى لم أكن أعرف أن ابنـك قد سرق مصرفا !

أما الآن فانا أوافق هذا الشـاب المهذب ، اننى آسف لهذا ولكن ابنك يجب أن يعود الى كوكتاون .

ثم توجه السيد سليرى بالكلام الى بيتزر قائلا :

– اننى لا أستطيع تقديم الكثير ياسيدى ، ولكن حصانى وعربتى جاهزين وسوف أوصلك والسيد توم (الابن) الى محطة القطار وسوف آمر بتجهيز عـربة للسيدتين ومعهما السيد جـراد جرينـد وســوف يتبعوننا .

فقال بيتزر :

– هذا حسن ياسيدى ، لم أكن أعرف أن رجال السيرك يلتزمون بالقانون !

– أوه ! يا سـيدى ! اننا بالتأكيد نطيـــع القانون ، ولكن . لا أظنك تمانع فى أن أصطحب معى كلبى . فالحصان لن يذهب الى أى مكان بدون الكلب ولهذا ‥ يجب أن نأخذه معنا .

فقال بيتزر :

– نعم ، يمكنه أن يساعد فى حراسة هذا اللص الكذاب .

ووصلوا الى العربة فصعد توم وبيتزر والكلب ، **وقال سليرى لبيتزر :**

– اسمح لى بدقيقة يا سيدى ، سآخذ السـيد جراد جرينـد والسـيدتين الى خيمتى حيث ينتظران العربة .

وفى الخيمة شرح سليرى بسرعة ماينـــوى أن يفعله :

– يمكنك أن تعتمد على ياسـيد جراد جريند ، فقد دربت هذه الحيوانات جيدا بنفسى ، فالحصــان

لن يذهب للمحطة فسيصاب بالجنون فى مكان ما وسوف أدعى أننى لا أستطيع السيطرة عليه وعندما تقترب من المرفأ . سيقذف بابنك فى العربة ،وسيمسك الكلب بيتزر من بنطلونه وبالطبع لن أستطيع تقديم أى مساعدة وسيكون ابنك على ظهر السفينة قبل أن تبحر .

وبعد هذا أحضر السيد سليرى ثيابا مناسبة لتوم (الابن) وبعض الزيت ليغسل عن وجهه الأصباغ، كان الظلام قد خيم تماما على المدينة عندما بدأ سليرى يقود العربة ..

كان الجميع ـ السيد جراد جريند ولويزا وسيسى ـ يشعرون بالامتنان والشكر لسليرى وقد قضوا تلك الليلة فى فندق .

عاد السيد سليرى ومعه كلبه فى الرابعة صباح اليوم التالى . فى هذا الوقت كان توم (الابن) فى عرض البحر فى طريقه الى أمريكا .. بينما كان بيتزر يسير فى طريقه الى كوكتاون .. وحيدا !

أقام السيد جراد جريند حفلا فى الفندق لكل أفراد السيرك كانت سعادة سيسى عميقة لرؤية أصدقائها القدامى .

أثناء الغداء همس السيد سليرى فى أذن السيد جراد جريند قائلا :

ـ لقد مات والد سيسى ياسيدى . لا أعرف متى مات ؟ ولا أين ؟ ولكنى متأكد أنه مات .

ـ وكيف عرفت ؟

ـ أقول لك يا سيدى ، كان لدى والدها كلب يدعى (ميرى ليجز) هذا الكلب عاد الى السيرك منذ أربعة عشر شهرا . كان فى حالة سيئة .. مكفوف البصر .. لابد أنه مشى مسافة طويلة . حسنا ، لقد أخذ يشم كل الأطفال الموجودين بالسيرك .. كان يبحث عن طفلة يعرفها ، فلما لم يجدها جاء الى وبعد خمسة دقائق أخرى .. مات . والآن ياسيدى ، هذا الكلب ما كان ليترك جوب لو أن جوب كان حيا .

فقال جراد جريند :

ـ أعتقد أن هذا غير صحيح ، فسيسى مازالت تحب أباها وتأمل فى عودته ، انها لم تشك لحظة فى مدى حبه لها .

ـ دعها تحيا مع الأمل ياسيدى . فسيجعل حياتها أسعد كثيرا !

والآن .. ترى ماذا حدث لبقية أبطال القصة ؟

واذا كان فى مقدورنا أن ننفذ ببصرنا خلال حجب الغيب لنطلع على المستقبل ، فماذا يمكننا أن نرى ؟

السيد باوندرباى : ظل السيد باوندرباى غاضبا من مسز سبارسيت ، وهى نفسها بدأت تمله ، ولم يمض أسبوعان حتى أرسلها الى عائلتها الغنية ، وقبل أن ترحل قالت له :

ـ سيدى .. يجب أن تعمل فى سيرك ، فانك حقا مهرج ! ولهذا فالسيرك هو مكانك الصحيح !

وبينما أصبحت مسز سبارسيت أكبر سنا

اصبح السيد باوندرباى أكثر غضبا . وفى أحد الأيام بعد مرور خمس سنوات وبينما هو يمشى فى طريقه الى البنك .. انفجر شىء ما فى داخله فسقط ميتا فى الشارع . حقا انه لم ينهض بنفسه من الشارع ، ولكنه وللحقيقة أيضا .. مات فيه !

السيد جراد جريند : تغير السيد جراد جريند . واخذ الحب والأمل مكان الوقائع والأرقام فى حياته كما أن أطفاله الثلاثة الصغار قد نعموا بحياة أسعد من لويزا وتوم وكتب السيد جراد جريند خطابا عاما أثبت فيه براءة ستيفن بلاكبول وبين فيه أن ابنه توم هو المذنب الحقيقى ..

والآن ترى ماذا خبأ المستقبل « للويزا » ؟

أصبحت حياتها لطيفة .. هادئة وتلقت رسالة من توم ، طلب منها أن تسامحه وقال لها فى رسالته :

« اننى لأضحى بكل كنوز الدنيا من أجل أن أمتع عينى برؤيتك ثانية »

لكنه لم يرها ، ولم تره ثانيــة ، فقد مات توم محموما فى المستشفى !

هل تزوجت لويزا ثانية ؟ هل قدر لها أن تنجب بأطفال ؟

الاجابة هى ٠٠ لا

اذن هل كان لها أصدقاء ؟

الاجابة هى ٠٠ نعم ٠٠ فقد كانت هناك راشيل التى عملت فى مصنع النسيج بقية عمرها كانت طيبة وحنون ، كما أنها أصبحت مع مر الأيام أكثر ســعادة فهــى المرأة الوحيــــدة فى كوكتــاون التى وثقــت وأشفقت على زوجة ستيفن بلاكبول ٠

وكانت هناك أيضا سيسى ٠٠ وأطفــال سيسى السعداء بالقرب منها ٠ كان بيت سيسى مكانا رائعــا حقا ٠٠ تملؤه الزهور وتزين جدرانه اللوحات الجميلة ومكتبته تحوى قصصا رائعة ٠٠ الجمال والخيال فى

كل مكان ٠٠ على الأرضيات ومعلق على الجـدران ٠٠ الحب والسعادة والخيالات الجميلة ٠٠

حتى السيد جراد جريند حاول أن يستمتع بكل هذا !

ولويزا ٠٠ لويزا عشقت كل هذه الأشياء ٠٠